الفصل الثاني عشر

التعليم والنهضة العلمية

إذا ذكرت حسنات محمد علي كان من أجل أعماله توجيهه جزءًا كبيرًا من جهوده إلى إحياء العلوم والآداب في مصر، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها، وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا. وقد اتبع في هذا السبيل تلك الفكرة التي اتبعها في إنشاء الجيش والأسطولي؛ ذلك أنه اقتبس النظم الأوربية الحديثة في نشر لواء العلم والعرفان، فأسس المدارس الحديثة، وأخذ من الحضارة الأوربية خير ما أنتجته العلوم والقرائح، فنهض بالأفكار والعلوم في مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدم مصر العلمي الحديث.

عني محمد علي بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوي وابتدائي، ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عني أولًا بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات، ثم وجه نظره إلى التعليم الابتدائي، ونعم ما فعل؛ لأن الأمم إنما تنهض أولًا بالتعليم العالي الذي هو أساس النهضة العلمية.

وقد أراد بادئ الأمر أن يكوِّن طبقة من المعلمين تعلمًا عاليًا يستعين بهم في القيام بأعمال الحكومة والعمران في البلاد، وفي نشر التعليم بين طبقات الشعب، وهذا هو التدبير الذي برهنت التجارب على أنه خير ما تنهض به الأمم، وقد ساعد على تكوين طبقة تعلمت تعلمًا عاليًا قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطًا يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوربا، فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي.

مدرسة الهندسة بالقلعة

ويبدو لنا أن أول ما فكر فيه محمد علي من بين المدارس العالية مدرسة الهندسة، وهذا يدلك على الجانب العملي من تفكيره، فإنه رأى البلاد في حاجة إلى مهندسين لتعهد أعمال العمران فيها، فبدأ بتعليم الهندسة.

وظاهرٌ مما ذكره الجبرتي في حوادث ١٢٣١هـ (١٨١٦م) أن أول مدرسة للهندسة بمصر يرجع عهد تأسيسها إلى تلك السنة؛ وذلك أن أحد «أبناء البلد» -على حد تعبير الجبرتي، واسمه حسين شلبي عجوة- اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه، وقدم نموذجها إلى محمد علي، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة في دمياط، وأخرى في رشيد، فكان هذا الاختراع باعثًا لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة، فأنشأها في القلعة.

رواية الجبرتي

قال الجبرتي: «إن الباشا لما رأى هذه «النكتة» من حسين شلبي قال: إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية (بالقلعة) ورتب فيه جملة من أولاد البلد، ومماليك الباشا، وجعل معلمهم حسن أفندي - المعروف بالدرويش الموصلي- يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات، والارتفاعات، واستخرج المجهولات مع مشاركة شخص رومي (تركي) يقال له: روح الدين أفندي، بل وأشخاصًا من الإفرنج، وأحضر لهم آلات هندسة متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهريات وكساوى في السنة، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب، وسموه مهندسخانة، في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون في بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب، وهو الغرض المقصود للباشا».

فهذه بعينها هي مدرسة الهندسة -أو المهندسخانة- بما فيها من دروس الرياضة والهندسة وما إليها، وتلاميذها يتعلمون مجانًا، وترتب لهم رواتب شهرية وكساوى ولها أساتذة من أمثال «حسن أفندي الدرويش الموصلي، وروح الدين أفندي»، بل وأشخاص من الإفرنج» كما يعبر الجبرتي.

وقد دعا الجبرتي إلى الكلام عن هذه المدرسة في ترجمة «حسن أفندي الدرويش» المتوفى سنة (١٢٣١هـ) فقال:

«لما رغب الباشا في إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة تعين المترجم رئيسًا ومعلمًا لمن يكون متعلمًا بذلك المكتب؛ وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك، ورتب له خروجًا وشهرية ونجب تحت يده المماليك في معرفة الحسابيات ونحوها، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكانًا للتعليم، ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس، فأمر بإنشاء ذلك المكتب، وأحضر إليه أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنجليز وغيرهم، واستجلب من أولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصًا من الشبان الذين فيهم قابلية للتعليم، ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة في آخر السنة، فكان يسعى في تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين أقرانه، ويواسي من يستحق المواساة، ويشتري لهم الحمير مساعدة لطلوعهم ونزولهم إلى القلعة، فيجتمعون للتعليم في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهر. وأضيف إليه آخر حضر من إسلامبول له معرفة بالحسابات والهندسيات؛ لتعليم من يكون أعجميًّا لا يعرف العربية مساعدًا للمترجم في التعليم يسمى «روح الدين أفندي»، فاستمر نحوًا من تسعة أشهر، ومات المترجم وانفرد برياسة المكتب روح الدين أفندي».

هذا ما ذكره الجبرتي، ومنه يؤخذ قطعًا أن أول مدرسة للهندسة أنشئت سنة (١٨١٦م) بالقلعة، وبذلك تكون هذه المدرسة أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد علي؛ لأن المدارس الأخرى أنشئت بعد ذلك التاريخ، ويؤخذ من كلام الجبرتي أن

التعليم فيها كان مجانيًّا، وكانت الحكومة تؤدي رواتب شهرية لتلاميذها، وكذلك كان شأنها في كل المدارس التي أنشأتها. ويفهم أيضًا من كلام الجبرتي أن إنشاء هذه المدرسة راجع إلى ما ظهر من المصريين من المواهب في الكفاءة والابتكار، فإن ما رآه محمد علي من «حسين شلبي» إذ وفق إلى هذا الاختراع -أو «النكتة» كما يقول الجبرتي- جعله يفكر في إنشاء المدرسة، فحسن استعداد المصريين وذكاؤهم الفطري كانا من أعظم ما حفز همَّة محمد علي إلى إنشاء المدارس في مصر.

ويحصل من رواية الجبرتي أن مدرسة الهندسة كان بها مدرسون من الإفرنج، ولعل هذه المدرسة هي التي يشير إليها الأمر الصادر من محمد علي باشا بتاريخ (٤ ذي الحجة سنة ١٢٣٥هـ (١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٠م) إلى كتخدا بك بتعيين أحد القسس لإعطاء دروس في اللغة الطليانية والهندسة لبعض تلامذتها، وأن يخصص له محل للتدريس في القلعة، وإليها أيضًا يشير الأمر الصادر بتاريخ ١٦ سبتمبر من تلك السنة بتعيين الخواجة قسطي مدرسًا بمدرسة المهندسخانة لتدريس الرياضة والرسم بها.

مدرسة المهندسخانة ببولاق

والظاهر أن مدرسة القلعة لم تفِ على مر السنين بحاجات البلاد إلى المهندسين، أو أن برنامجها لم يكن وافيًا بالمرام؛ فأنشأ محمد علي في سنة (١٨٣٤م) مدرسة أخرى للمهندسخانة في بولاق، وعين «أرتين أفندي» -أحد خريجي البعثات العلمية- وكيلًا لها، ثم تولى نظارتها «يوسف حاككيان أفندي» أحد خريجي البعثات أيضًا. وفي سنة (١٨٣٨م) أسندت نظارتها إلى المسيو «لامبير بك» لغاية سنة (١٨٤٩م) إذ تولاها علي مبارك بك (باشا). وهذه المدرسة من أجل وأنفع المدارس التي أنشأها محمد علي باشا، ومنها تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة. ومن أشهر أساتذتها في ذلك العهد: «طائل أفندي، ومحمد بيومي أفندي، ومحمد بك أبو سن، ومحمود باشا الفلكي، ودقلة بك، وإبراهيم بك رمضان، وأحمد بك فايد وسلامة باشا».

مدرسة الطب

أسس محمد علي مدرسة الطب سنة (١٨٢٧م) إجابة لاقتراح الدكتور «كلوت بك»، وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعبل؛ لوجود المستشفى العسكري بها من قبل، فأنشئت المدرسة بالمستشفى إذ كان أليق مكان في ذلك الحين لإيواء المدرسة لتوافر وسائل التعليم الطبي والتمرين، والغرض منها تخريج الأطباء المصريين للجيش، ثم صار الغرض عامًّا بأن صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة.

واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر، وتولى إدارتها وإدارة المستشفى الدكتور كلوت بك، فاختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الأوربيين - ومعظمهم من الفرنسيين- يدرسون علوم التشريح والجراحة، والأمراض الباطنية، والمادة االطبية، وعلم الصحة، والصيدلة، والطب الشرعي، والطبيعة، والكيمياء، والنبات، وكان فيها أساتذة آخرون لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الأزهريين.

وقد بذل «كلوت بك» جهودًا صادقة للنهوض بالمدرسة والسير بها إلى ذروة النجاح، واعترضته صعوبات جمَّة وأهمها لغة التعليم، فقد كان المقرر جعل التعليم باللغة العربية، ولكن الأساتذة كانوا يجهلون تلك اللغة، فاختير لهم مترجمون يجيدون اللغتين الفرنسية والعربية، فكان المدرس يأتي إلى الفرقة ومعه المترجم، فيلقي الدرس بالفرنسية وينقله المترجم إلى العربية، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم في كراريسهم.

ثم صار المترجمون يختارون من بين أوائل تلاميذ المدرسة الذين تعلموا اللغة الفرنسية في ساعات فراغهم وفي معهد ألحق خصيصًا بالمدرسة لتعلم تلك اللغة؛ لكن هذا المعهد لم يلبث أن ألغي.

وألحق بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ما تنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة.

وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى من تلاميذها، فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش، واختير من بينهم المتفوقون على أقرانهم وهم عشرون، فأبقى منهم ثمانية في المدرسة في وظيفة معيدين للدروس، وأرسل الاثنا عشر الباقون إلى باريس لإتقان علومهم وإتمامها، فما عادوا عينوا أساتذة في المدرسة، وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة كما سيجيء بيانه.

ذكر المسيو «مانجان» أن عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ (سنة ١٨٣٧م) (١٤٠) طالبًا و(٥٠) طالبًا في مدرسة الصيدلة، ووصف مستشفى أبي زعبل، فقال: إنه احتوى (٧٢٠) سريرًا، وأن غرفة منسقة تنسيقًا بديعًا، يتخللها الهواء الطلق، وتسودها النظافة حيث عهد إلى مدرسي مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى، فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى.

ثم نقلت المدرسة ونقل معها المستشفى إلى مصر سنة (١٨٣٧م)، واختير لها (قصر العيني) فصارت المدرسة والمستشفى أقرب إلى القاهرة وأدعى إلى نشر التعليم الطبي ومعالجة المرضى.

مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابلات والولادة، واختيرت لهذه الأخيرة طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة، وألحق بمدرستهنَّ مستشفى صغير للنساء، ثم نقلت المدرسة من أبي زعبل إلى القاهرة.

كلوت بك

هو -كما ترى- صاحب الفضل الكبير على النهضة الطبية الحديثة في مصر. ولد في مدينة «جرينوبل» بفرنسا سنة (١٧٩٣م) من أبوين فقيرين، ولما ترعرع أكبَّ على الدرس؛ على ما كان فيه من عوز وفاقة، وتعلم الطب واضطر أن يشتغل صبيًّا عند

حلاق بمرسيليا ليتابع دروسه، ولم ينزل مكبًّا على تعلم الطب إلى أن أخذ إجازته وعين طبيبًا ثانيًا في مستشفى الصدقة بمرسيليا، ثم انفصل عن هذا المنصب ومارس مهنة الطب في تلك المدينة، إلى أن تعرف إلى تاجر فرنسي كان محمد علي عهد إليه بأن يختار له طبيبًا للجيش المصري، فرغب إليه قبول هذه المهمة، فرضي بها وجاء مصر سنة (١٨٢٥م). وكان على أخلاق فاضلة وعزيمة صادقة، فعهد إليه محمد علي تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري المنشأة حوالي سنة (١٨٢٠م)[١]، وجعله رئيس أطباء الجيش، فعني بتنظيم هذه الإدارة عناية تامة. ولما كانت (الخانكة) حين مجيئه إلى مصر مقرًّا للمعسكر العام للجيش، أشار على محمد علي باشا بإنشاء مستشفى عسكري بأبي زعبل بجوار المعسكر العام، فأنفذ محمد علي اقتراحه وأنشأ المستشفى الذي صار فيما بعد مستشفى عامًّا لمعالجة الجنود وغيرهم ونموذجًا للمستشفيات التي أنشئت من بعده. ثم خطر له أن ينشئ بجوار المستشفى المذكور مدرسة لتخريج الأطباء من أبناء البلاد، فعمل محمد علي باقتراحه وأنشأ بأبي زعبل سنة (١٨٢٧م) مدرسة الطب التي صارت مبعث النهضة في مصر، وتولى «كلوت بك» إدارتها، ثم نقلت المدرسة ومعها المستشفى إلى قصر العيني سنة (١٨٣٧م) كما رأيت في سابق الكلام.

ولـ«كلوت بك» كثير من المؤلفات الطبية ترجم معظمها خريجو مدرسة الطب. وقد أسس مجلسًا للصحة على النظام الفرنسي كان له فضل كبير في النهوض بالحالة الصحية للبلاد، وعني بتنظيم المستشفيات وأنشأ مجلس الصحة البحري في الإسكندرية.

وقد بذل جهودًا صادقة في ترقية حالة البلاد الصحية ومقاومة الأمراض، وهو الذي أشار باستعمال تطعيم الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض في القطر المصري بعد

(١) كما ذكر ذلك الدكتور «نيرتسوس بك» Neroutsous Boy في كتابه «نظرة تاريخية في تنظيم الإدارة الصحية بمصر» طبع سنة (١٨٨٠م)، ص٣.

أن كان يودي بحياة نحو ستين ألفًا من الأطفال كل عام. وكافح هو وتلاميذه وباء الكوليرا الذي وقع بمصر سنة (١٨٣٠م). وقد سُرَّ محمد علي لما بذله من جهود في مقاومة هذا الوباء؛ فأنعم عليه بالبكوية فصار يعرف بكلوت بك.

وبذل أيضًا جهودًا كبيرة في مقاومة الطاعون الذي حل بالبلاد سنة (١٨٣٥م)، وأنعم عليه لهذه المناسبة برتبة أمير لواء.

ولما تولى «عباس باشا الأول» اضمحلت مدرسة الطب، وعاد «كلوت بك» إلى فرنسا، ثم أقفلت المدرسة في عهد «سعيد باشا» وانتظم تلاميذها في سلك الجيش. غير أن سعيد باشا عاد واعتزم فتحها فاستدعى «كلوت بك» من فرنسا وأعيد فتح المدرسة سنة (١٨٥٦م) باحتفال فخم. غير أن كلوت بك قد ضعفت صحته فارتحل إلى فرنسا سنة (١٨٥٨م)، وأقام بها إلى أن وافته منيته في (أغسطس سنة ١٨٦٨م).

مدرسة الألسن

أنشئت سنة (١٨٣٦) مدرسة (الألسن) بالأزبكية (مكان فندق شبرد الآن ١٩٣٠م، تاريخ الطبعة الأولى). وهي التي تولى نظارتها «رفاعة بك رافع»، وسيجيء الكلام عنها في ترجمته.

بقية المدارس العالية والخصوصية

مدرسة المعادن بمصر القديمة، أسست سنة (١٨٣٤م).

مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب، أسست سنة (١٨٣٧م).

مدرسة الفنون والصنائع (وتسمى مدرسة العمليات)، أسست سنة (١٨٣٩م) وتولى نظارتها يوسف حككيان بك.

مدرسة الصيدلة بالقلعة، أسست سنة (١٨٢٩م).

مدرسة الزراعة بنبروه، ثم نقلت إلى (شبرا) سنة (١٨٣٦م)، ثم ألغيت سنة (١٨٣٩).

مدرسة الطب البيطري، أنشئت أولًا برشيد، ثم نقلت إلى أبي زعبل بالقرب من مدرسة الطب، ثم إلى شبرا، وتولى إدارتها المسيو «هامون».

المدرسة التجهيزية (الثانوية) بأبي وعبل، ثم نقلت إلى الأزبكية.

المدرسة التجهيزية بالإسكندرية.

المدارس الحربية والبحرية

تكلمنا عنها في الفصل العاشر والحادي عشر.

ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية)

لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التي أنشأها محمد علي واتسع نطاقها، رأى أن ينشئ لها إدارة خاصة سميت (ديوان المدارس) سنة (١٨٣٧م)، وكان موجودًا من قبل باسم (مجلس شورى المدارس). وقد ساعد على تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلى مصر، فرأى محمد علي أن يهيئ لهم الفرصة للانتفاع بمواهبهم في تنظيم نهضة التعليم، فأسس (ديوان المدارس)، وأسند رياسته إلى أمير اللواء (مصطفى مختار بك) أحد خريجي البعثة الأولى، فكان هذا الديوان أول وزارة للمعارف في مصر. وقد توفي «مختار بك» سنة (١٨٣٨م) وخلفه سنة (١٨٣٩م) أمير اللواء «أدهم بك» (باشا) -وهو ذلك الضابط القدير الذي كان مديرًا لترسانة القلعة، وتكلمنا عنه آنفًا- وبقي يتولى هذا المنصب إلى سنة (١٨٤٩م).

وكان لديوان المدارس مجلس مؤلف من «مصطفى مختار بك» رئيسًا، ومن الأعضاء الآتية أسماؤهم: «كلوت بك، كياني بك، أرتين بك، أسطفان بك، حككيان بك، فارين بك، رفاعة رافع بك، محمد بيومي أفندي، لامبير بك، هامون بك، دوزول». وبعض هؤلاء الأعضاء من خريجي البعثات المصرية.

وقد قرر هذا المجلس تنظيم التعليم بالمدارس، ووضع لائحة لنشر التعليم الابتدائي تشمل (٢٧) مادة، ذكر فيها ضرورة إنشاء خمسين مدرسة ابتدائية؛ منها (٤) بالقاهرة، وواحدة بالإسكندرية، والباقي في أنحاء القطر المصري لنشر التعليم بين طبقات الأمة، وقضت هذه الائحة بأن يكون عدد التلاميذ بكل مدرسة بمصر والإسكندرية (٢٠٠) تلميذ، وبكل مدرسة من مدارس الأقاليم (١٠٠) تلميذ.

فديوان المدارس إذن هو مبتكر نظام التعليم الابتدائي في مصر، ولذلك يلاحظ أن معظم المدارس الابتدائية (وتسمى مكاتب) أنشئت سنة (١٨٣٧م) أو بعدها.

المدارس الابتدائية

وهاك أسماء المدارس الابتدائية التي أنشئت في عصر محمد علي مرتبة بحسب المديريات[١].

البحيرة

مدرسة الرحمانية، مدرسة النجيلة وشبراخيت، مدرسة دمنهو (ثم أُحيلت على مدرسة الرحمانية).

الغربية

مدرسة إبيار، مدرسة المحلة الكبرى، مدرسة زفتى، مدرسة شربين، مدرسة طنطا، مدرسة فوه، مدرسة الجعفرية، مدرسة نبروه.

المنوفية

مدرسة أشمون جريس، مدرسة شبين الكوم، مدرسة منوف (ثم أحيلت على مدرسة أشمون جريس).

---

(١) راجع كتاب «التعليم العام في مصر» ليعقوب آرتين باشا (بالفرنسية) ص١٧٦ طبعة سنة (١٨٩٠م)، وكتاب (التعليم في مصر) لأمين سامي باشا، ص٤ ملحق ٥.

الدقهلية

مدرسة المنصورة، مدرسة ميت غمر، مدرسة المنزلة، مدرسة صهرجت، مدرسة فارسكور، مدرسة محلة دمنه.

الشرقية

مدرسة الزقازيق، مدرسة العزيزية، مدرسة بلبيس، مدرسة كفور نجم، مدرسة ميت العز.

القليوبية

مدرسة بنها، مدرسة قليوب، مدرسة الخانكة (ثم نقلت إلى السيدة زينب) مدرسة أبي زعبل، مدرسة طوخ.

الجيزة

مدرسة حلوان.

الفيوم

مدرسة الفيوم.

بني سويف

مدرسة بني سويف، مدرسة بوش.

المنيا

مدرسة المنيا، مدرسة الفشن، مدرسة بني مزار.

أسيوط

مدرسة أسيوط، مدرسة أبو تيج، مدرسة الساحل، مدرسة ساقية موسى، مدرسة سنبو، مدرسة ملوى، مدرسة منفلوط.

obeikan.com

جرجا

مدرسة أخميم، مدرسة جرجا، مدرسة سوهاج، مدرسة طهطا.

قنا وإسنا

مدرسة قامول، مدرسة قنا، مدرسة فرشوط، مدرسة إسنا.

ويلاحظ أن معظم المدارس الابتدائية قد ألغيت في أواخر عهد محمد علي.

وكان التعليم في المدارس كافة عالية وتجهيزيه وابتدائية مجانيًّا، والحكومة تنفق على التلاميذ من مسكن وغذاء وملبس، وتجري على كثير منهم الأرزاق والمرتبات، ولكن لم يكن الأهالي في بدء افتتاح المدارس راضين عن إدخال أبنائهم فيها؛ بل كانوا نافرين منها نفورهم من الجندية، فكانت الحكومة تدخلهم المدارس في غالب الأحيان بالقوة، ولكن ما لبث الأهلون أن رأوا ثمرات التعليم فكفوا عن المعارضة في تعليم أبنائهم في المدارس وأقبلوا عليها.

وذكر «كلوت بك»[1] أن عدد التلاميذ بمدارس القطر المصري قاطبة بلغ على عهد محمد علي (٩٠٠٠) تلميذ، تتولى الحكومة الإنفاق على تعليمهم وسكناهم وغذائهم وملبسهم، وتؤدي لهم رواتب ضئيلة.

البعثات العلمية

وجه محمد علي همته إلى إيفاد البعثات المدرسية إلى أوربا ليتم الشبان المصريون دراستهم في معاهدهم العلمية، وهذه الفكرة تدل على ناحية من نواحي عبقرية محمد علي باشا، فهو لم يكتف بأن يؤسس المدارس والمعاهد العلمية بمصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التي تنهض بالمجتمع المصري، بل اعتزم أن ينقل إلى مصر معارف أوربا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصنائع والفنون فيها، وأراد أن

(١) ج٢، ص٥١٩.

تضارع مصر أوربا في مضمار التقدم العلمي والاجتماعي، فقصد من إرسال البعثات تكوين فئة من المصريين المثقفين لا يقلون عن أرقى طبقة مهذبة في أوربا.

وأراد من جهة أخرى أن تجد مصر من خريجي هذه البعثات كفايتها من المعلمين في مدارسها العالية، والقواد والضباط لجيشها وبحريتها، ومهندسيها والقائمين على شئون العمران فيها وإدارة حكومتها؛ لكي لا تكون مع الزمن عالة على أوربا من هذه الناحية.

ولو تأملت مليًّا في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة واختلجت في نفس محمد علي، لعجبت لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع؛ ففي ذلك العصر لم يفكر حاكم شرقي ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات، وهذه تركيا وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد علي، لم تفكر حينذاك أصلًا في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية، فصدور هذه الفكرة في ذلك العصر وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولًا فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس يدل حقيقة على عبقرية نادرة وهمة عالية.

الإرساليات الأولى

ابتدأ محمد علي يرسل الطلبة المصريين إلى أوربا حوالي سنة (١٨١٣م) وما بعدها، وأول بلاد اتجه إليها فكره إيطاليا، فأوفد إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما وغيرها من المدن الإيطالية طائفة من الطلبة لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من الفنون.

وأفراد هذه الرسالة لم يتناولهم الإحصاء الدقيق، وإنما يعرف منهم (نقولا مسابكي) أفندي الذي أوفده إلى روما وميلانو سنة (١٨١٦م) بواسطة المسيو روستي قنصل النمسا في مصر ليتعلم فن الطباعة وما إليها من سبك الحروف وصنع قوالبها، فأقام أربع سنوات ثم عاد إلى مصر فتولى إدارة مطبعة بولاق سنة (١٨٢١م) وبقي مديرًا لها إلى أن توفي سنة (١٨٣١م).

ثم اتجه نظر الباشا إلى فرنسا فأرسل إليها طائفة من الطلبة.

وكذلك أرسل إلى إنجلترا بعض التلاميذ لتلقي فن بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه، والميكانيكا.

وبلغ عدد هؤلاء جميعًا (٢٨) طالبًا، ولم يعرف أفراد هذه الإرساليات، وإنما عرف من أفراد بعثة فرنسا شاب كان له شأن كبير في تنظيم البعثات الكبرى التي أخذت تتدفق نحو فرنسا، وهو عثمان نور الدين أفندي الذي صار أميرالًا للأسطول المصري، وترجمنا له في الفصل السابق.

البعثات الكبرى

أرسل محمد علي أول بعثة من البعثات الكبرى سنة (١٨٢٦م)، وهي مؤلفة من أربعين تلميذًا، ولحق بهم أربعة تلاميذ آخرون، فصار عدتهم سنة (١٨٢٨م) أربعة وأربعين طالبًا، واستمر يرسل الطلاب إلى فرنسا فينضمون إلى البعثة الأولى.

وفي سنة (١٨٤٤م) أوفد بعثة كبرى من الطلبة لتلقي العلوم والفنون الحربية مؤلفة من سبعين تلميذًا اختارهم القائد سليمان باشا الفرنساوي من بين تلاميذ المدارس المصرية، ثم لحق بهم غيرهم، وكان بينهم أربعة من الأمراء؛ منه اثنان من أبناء محمد علي؛ وهما الأمير عبد الحليم والأمير حسين، واثنان من أبناء إبراهيم باشا وهما (الخديوية) إسماعيل والأمير أحمد، ولهذه البعثة الأخيرة أنشئت المدرسة المصرية التي تولى إدارتها أسطفان بك، واستمرت تؤدي عملها وهو تأهيل الطلبة لإتقان اللغة الفرنسية ومماشاة المدارس العليا بفرنسا، إلى أن أقفلت سنة (١٨٤٨م)[1]، وقد أوفد بعثة صغيرة سنة (١٨٤٧م) إلى فرنسا من طلبة الأزهر لتلقي علم الحقوق،

(١) أعيدت في عهد إسماعيل باشا، ثم أقفلت لمناسبة الحرب السبعينية.

فتعلم هؤلاء جميعًا بإرشاد المسيو «جومار»[١] وتحت رقابته، وأرسل غير هؤلاء بعض التلاميذ إلى إنجلترا والنمسا.

قلنا: إن الرسالات الثلاث الأولى لم يتناول الإحصاء الدقيق بيان أعضائها، ولذلك صار مألوفًا تعداد البعثات ابتداء من بعثة سنة (١٨٢٦م)، ويعد العلامة علي باشا مبارك بعثة تلك السنة «أول رسالة أرسلت إلى أوربا من الديار المصرية في زمن المرحوم العزيز محمد علي»[٢].

عدد طلبة البعثات وما أنفق عليهم

وقد بلغ عدد الطلبة جميعًا الذين أوفدهم محمد علي إلى أوربا من سنة (١٨١٣م) إلى سنة (١٨٤٧م) ٣١٩ تلميذًا؛ منهم (٢٨) في الرسلات الثلاث الأولى ابتداء من سنة (١٨١٣م) إلى سنة (١٨٢٥م) و٢٩١ في البعثات الكبرى ابتداء من سنة (١٨٢٦م)، فيكون مجموعهم (٣١٩) تلميذًا، وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك العصر، وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية.

وكما أن عدد تلاميذ هذه البعثات مما يسترعي النظر، فإنه مما يحسن معرفته مبلغ النفقات التي تكلفتها، فقد دلَّ الإحصاء على أنها بلغت (٣٠٣٣٦٠) من الجنيهات، من ذلك (٣٠٠٠٠) قيمة ما أنفق على الرسلات الأولى، و(٢٧٣٣٦٠) قيمة ما أنفق على البعثات الكبرى التي أرسلت من سنة (١٨٢٦م) إلى سنة (١٨٤٧م)، بما في ذلك نفقة الأمراء أنجال محمد علي باشا وأحفاده ممن التحقوا بالبعثة الخامسة، وهو مبلغ ضئيل بالنسبة للخيرات التي نالتها مصر على أيدي خريجي تلك البعثات.

---

(١) راجع ترجمته بالجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص١٢٦، الطبعة الأولى.

(٢) «الخطط التوفيقية» ج١١، ص٦٨.

عناية محمد علي بأعضاء البعثات ونموذج من رسائله إليهم

وكان محمد علي شديد العناية والاهتمام بأعضاء البعثات؛ يتقصى أنباءهم ويتتبع أحوالهم، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد، وينبههم إلى واجباتهم. وقد أورد «رفاعة بك رافع» نموذجًا من رسائله، وهو كتاب بعثة إلى طلبة البعثة الأولى في (سبتمبر سنة ١٨٢٩م) يدلك على مبلغ عنايته بشأنهم وحثه إياهم على الجهد والاجتهاد، قال فيه ما نصه حرفيًّا[(١)]:

«قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئًا، وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياسًا على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمَّنا غمًّا كثيرًا، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئًا من ثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه الباطلة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلوهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغي للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجني ثمرة تعبه، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ولم يجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم، فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من

(١) نقلًا عن «تخليص الإبريز» ص١٥١.

غير تحصيل العلوم والفنون، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم، ويكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه، وهو إمَّا من عدم اعتنائكم، أو من تشويشكم، وأي تشويش لكم، هل هو طبيعي أو عارض، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا منكم، فاقرءوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في إسكندرية بمنه تعالى، فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه» (٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥هـ).

البعثة الأولى (سنة ١٨٢٦هـ)

أرسلت هذه البعثة إلى فرنسا في (يولية سنة ١٨٢٦م)، وأخذ أعضاؤها ينتظمون في سلك المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون بإشراف المسيو «جومار»، وكان عدد البعثة أول ما أرسلت أربعين تلميذًا، ثم لحق بهم أربعة آخرون فصار عدتهم (٤٤) طالبًا.

رجع منهم خمسة قبل إتمام دروسهم لضعف صحتهم أو نقص كفاءتهم، ووزع الباقون على مختلف العلوم والفنون، وقد أحصاهم المسيو «جومار» في رسالته المنشورة بالمجلة الآسيوية JOURNAL ASIATIQUE[1] وعنه نقلنا أسماءهم.

وسنذكر هنا عددهم وبيان أسمائهم والفروع التي تخصصوا فيها والألقاب التي حازوها في المناصب التي تقلدوها بعد تخرجهم من البعثات.

---

(١) عدد (أغسطس سنة ١٨٢٨م) ص١٠٩.

* هذه العلامة تدل على أنه سيرد الكلام عن ترجمة صاحب الاسم.

٤- لدراسة الإدارة الملكية أو الحقوق

عبدي شكري (باشا)*.

أرتين (بك)*.

سليم أفندي.

محمد خسرو أفندي.

٤- لدراسة الفنون الحربية والإدارة العسكرية

مصطفى مختار (بك)*.

راشد أفندي.

أحمد (بك)*.

سليمان أفندي.

٢- للعلوم السياسية

أسطفان (بك)*.

خسرو أفندي.

٣- للملاحة والفنون البحرية

حسن (باشا) الإسكندراني*.

محمود نامي (بك)*.

محمد شنان (بك)*.

٣- للهندسة الحربية

محمد مظهر (باشا)*.

obeikan.com

سليمان أفندي البحيري.

علي أفندي.

٢- للمدفعية

عمر أفندي.

سليمان لاظ أفندي.

٢- للطب والجراحة

علي هيبة*.

الشيخ محمد الدشطوطي.

٢- للزراعة

يوسف أفندي*.

خليل محمود أفندي.

٣- للتاريخ الطبيعي والمعادن

علي حسين أفندي وأحمد النجدلي أفندي وأحمد أفندي.

٢- لهندسة الري

مصطفى بهجت (باشا) المعروف أصلًا بمصطفى محرمجي أفندي*.

محمد بيومي أفندي*.

١- للميكانيكا

الشيخ أحمد العطار.

obeikan.com

١- إمام البعثة

الشيخ رفاعة (بك) رافع الذي صار أنبه رجال البعثة ذِكْرًا وأرفعهم شأنًا.

٢- لصنع الأسلحة وصب المدافع

أمين (بك) الكرجي*.

أحمد حسن حنفي.

٢- للطباعة والحفر

حسن أفندي الورداني*.

محمد أسعد أفندي.

٤- للكيمياء

عمر الكومي.

أحمد يوسف*.

أحمد شعبان.

يوسف العياضي.

٢- بدون تخصيص

أمين أفندي.

أحمد أفندي.

٢- سافرا إلى مرسيليا وطولون

حسين أفندي.

قاسم الجندي.

obeikan.com

٣- عادوا لمصر لأسباب صحية أو لعدم أهليتهم

الشيخ محمد الرقيق.

إبراهيم وهبة.

الشيخ العلوي[١].

البعثة الثانية (سنة ١٨٢٨م)

أرسلتها الحكومة إلى فرنسا أواخر سنة (١٨٢٨م)، وكانت مؤلفة من (٢٤) تلميذًا تخصص معظمهم في الهندسة والرياضيات، وتخصص بعضهم في الطبيعيات وبعضهم في الحربية أو العلوم السياسية أو الطب.

وهاك أسماء من تناولهم الإحصاء:

٤- للهندسة والرياضيات

إبراهيم رمضان(بك)*.

أحمد دقلة (بك)*.

أحمد طائل أفندي.

أحمد فايد (باشا)*.

١- للطبيعيات

حسنين أفندي علي البقلي*.

٢- للإدارة الملكية

حسن جركس أفندي.

---

(١) كما وردت أسماؤهم في رسالة للمسيو «جومار» ص١١٢ (عدد أغسطس سنة ١٨٢٨م) من المجلة الأسيوية.

حسين جركس أفندي.

٢- للحربية

خليل جراكيان أفندي (عين وكيلًا للمدرسة المصرية التي أنشئت للبعثة الخامسة بباريس).

عثمان نوري أفندي.

١- للعلوم السياسية

عابدين أفندي (توفي أثناء تعلمه).

١- للطب والترجمة

محمد أفندي عبد الفتاح*.

٢- واحد من الأحباش وهو واوي بن كلهو، وواحد من أمراء السودان وهو سلطان أبو مدين.

البعثة الثالثة (سنة ١٨٢٩م)

هذه البعثة تغلب عليها الصبغة الصناعية، فمعظم أفرادها أرسلوا للتخصص في مختلف الصناعات، ذلك حين اتجهت عزيمة محمد علي إلى إنشاء الصناعات الكبرى واقتباس العلوم والفنون الخاصة بالصناعة من المعاهد الأوربية.

أرسلت الحكومة هذه البعثة سنة (١٨٢٩م)، وهي مؤلفة من ثمانية وخمسين تلميذًا، أرسلوا إلى فرنسا والنمسا وإنجلترا، وهاك توزيعهم بحسب الفروع التي تخصصوا لها كما ورد في «الوقائع المصرية» عدد (٧٣)[1]:

(١) الصادر في ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٤٥هـ (١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٩م) ولم تذكر أسماؤهم فيه.

التلاميذ الذين أرسلوا إلى فرنسا وعددهم (٣٤)

٢ – لتعلم صناعة بصم الشيت.

٢ – لتعلم صناعة الآلات الجراحية.

٢ – لتعلم الري.

٢ – لتعلم صناعة الساعات.

٢ – لتعلم صناعة الصياغة والجواهر.

٢ – لتعلم صناعة شمع العسل.

٢ – لتعلم صناعة نسيج الأقمشة الحريرية.

٢ – لتعلم صناعة النقش والدهان[١].

٢ – لتعلم صناعة صبغ الأجواخ.

٢ – لتعلم صناعة السراجة (السروجية).

٢ – لتعلم صناعة صنع السوف.

٢ – لتعلم صناعة الشيلان.

٢ – لتعلم صناعة البنادق والطبنجات.

٢ – لتعلم صناعة الأحذية.

٢ – لتعلم صناعة إنشاء السفن.

٢ – لتعلم صناعة شمع الأختام.

٢ – لتعلم صناعة الأجواخ.

---

(١) هما: محمد أفندي مراد، ومحمد أفندي إسماعيل. وقد تكلمنا عنهما في تراجم نوابغ البعثات.

obeikan.com

التلاميذ الذين أرسلوا إلى فينا وعددهم (٤)

٤ – لتعلم صناعة نسيج الأجواخ والأكسية المعروفة بالعباءات.

التلاميذ الذين أرسلوا إلى إنجلترا وعددهم (٢٠)

٢ – لتعلم صناعة آلات البوصلة وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الأبعاد وآلات الدوائر المنعكسة وغير ذلك من الآلات الفلكية.

٢ – لتعلم صناعة الآلات الهندسية.

٢ – لتعلم صناعة التنجيد والفراشة.

١٠ – لتعلم صناعة الميكانيكا.

٢ – لتعلم صناعة الصيني والفخار.

٢ – لتعلم صناعة صب المدافع والقنابل وما يتبعها.

٨٥

وقد أرسل طلبة هذه البعثة إلى أوربا بمعرفة «بوغوص بك» وزير التجارة والشئون الخارجية.

وقد لحق بالتلاميذ العشرين الذين أرسلوا من هذه البعثة إلى إنجلترا طلبة آخرون منهم:

٣– لتعلم الفنون البحرية وهم:

عبد الحميد (بك) الديار بكري*.

يوسف اكاه أفندي*.

عبد الكريم أفندي*.

opeikan.com

١ – لتعلم صناعة بناء السفن وهو:

محمد راغب (بك)*.

١ – للهندسة وهو:

يوسف حككيان (بك).

١ – لتعلم صناعة السجاجيد وهو: إسماعيل حنفي أفندي.

البعثة الرابعة أو البعثة الطبية الكبرى (سنة ١٨٣٢م)

عدد أعضائها اثنا عشر تلميذًا، وقد نبغ معظمهم وخلدوا أسماءهم بما قاموا به من جلائل الأعمال، وتجلى نبوغهم في نشر العلوم الطبية في مصر، وخاصة بمدرسة الطب تدريسًا وترجمة وتأليفًا، وفي الاضطلاع بالأعمال الصحية في البلاد.

وهم من أوائل خريجي مدرسة الطب المصرية بأبي زعبل، فكانوا باكورة ثمرتها، واختارهم الدكتور «كلوت بك» ليتمموا علومهم في باريس، حتى إذا عادوا عينوا أساتذة في مدرسة الطب، قال «كلوت بك» في هذا الصدد: «وكان هذا هو الغرض الذي أقصده؛ إذ كان من الواجب لإقامة علم الطب في مصر على دعائم ثابتة وطيدة من صبغه بالصبغة المصرية، وهو مالم يكن متيسرًا إلا بتكوين أساتذة من المصريين يلقون الدروس من غير حاجة إلى مساعدة المترجمين، ثم إنني أردت بإرسال الاثنى عشر طالبًا إلى باريس لإتمام علومهم فيها أن أبين الدرجة التي وصلوا إليها من التعليم في مدرسة أبي زعبل، وأن أدحض ما تذرع به الوشاة والقادحون من الأكاذيب والتخرصات لذم هذه المدرسة والحط من قدرها، وقد كان من حسن الحظ أن أقام أولئك التلاميذ في امتحانهم في اللغة الفرنسية أمام الأكاديمية الباريسية الدليل على

حذقهم وتفوقهم حتى استحقوا أن ينالوا لقب الدكتوراة من جامعة الطب بباريس»[١].

وهاك أسماؤهم، وسنترجم لبعض النابغين فيما يلي:

١ - محمد علي (باشا) البقلي*.

٢ - إبراهيم النبراوي (بك)*.

٣ - محمد الشافعي (بك)*.

٤ - محمد الشباسي (بك)*.

٥ - مصطفى السبكي (بك)*.

٦ - أحمد حسن الرشيدي (بك).

٧ - عيسوي أفندي النحراوي*.

٨ - الشيخ حسين غانم الرشيدي*.

٩ - محمد أفندي السكري.

١٠ - حسين الهياوي أفندي.

١١ - محمد منصور أفندي.

١٢ - أحمد نجيب أفندي.

البعثة الخامسة (سنة ١٨٤٤م)

هي أكبر البعثات التي أرسلت إلى فرنسا وأعظمها شأنًا، وهي آخر بعثة كبرى أوفدها محمد علي باشا، وكان فيها بعض أنجاله وأحفاده، ولذلك يسميها علي باشا مبارك في بعض المواطن (بعثة الأنجال).

---

(١) «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص٦٢٣.

obeikan.com

وقد انتخب القائد سليمان باشا الفرنساوي تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية بمصر، وانتظم في سلكها بعض المعلمين والموظفين.

قال علي باشا مبارك -وكان أحد أعضاء هذه البعثة- يصف تأليفها وسفرها وابتداء عهدها بالدراسة في فرنسا:

«وفي سنة (١٢٦٠هـ) انتخب سبعة من متقدمي الفرقة الأولى من مدرسة المهندسخانة ببولاق للسفر مع أنجال العزيز محمد علي باشا إلى بلاد فرنسا لتعلم العلوم العسكرية، فكنت أنا من جملتهم، وكذلك أخذ من غير هذه المدرسة كمدرسة الطوبجية بطره، ومدرسة السواري (الفرسان) بالجيزة، والمكتب العالي بالخانقاه، ومدرسة الألسن بالأزبكية، غير من طلب التوجه برغبته من الدواوين (موظفي الحكومة) وخلافها، فسافرنا، وأفرد لنا محل مخصوص بباريس ومن يلزم من الضباط والمعلمين، فأقمنا فيه جميعًا، وبعد سنتين انتقل المتقدمون منا في العلوم إلى المدارس الخصوصية»(١).

وقال في موضع آخر: «في سنة (١٢٦٠) عزم العزيز (محمد علي) على إرسال أنجاله الكرام إلى مملكة فرنسا ليتعلموا بها، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم، وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوي إلى المهندسخانة فانتخب عدة من تلاميذها، فكنت فيهم، وكان ناظرها يومئذ لامبير بك، فسافرنا إلى تلك البلاد، وجعل مرتبي كل شهر مائتين وخمسين قرشًا ماهية كرفقتي، فجعلت نصفها لأهلي يصرف لهم من مصر كل شهر، وكانت هذه سنتي معهم منذ دخلت المدارس، فأقمنا جميعًا بباريس سنتين في بيت واحد مختص بنا، ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس، والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية؛ لأن رسالتنا كانت عسكرية، وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم»(٢).

---

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٢، ص١٠.

(٢) «الخطط التوفيقية» ج٩، ص٤٠.

فالبعثة كما ترى كان الغرض منها تخصيص أعضائها في العلوم الحربية، وعددهم في مبدئها (٧٠) تلميذًا، ثم لحق بهم غيرهم، وقد بلغت نفقات أعضائها (٩٤٦١٥) جنيهًا، وهاك أسماء أنبهم شأنًا:

من أنجال محمد علي

١ - الأمير عبد الحليم.

٢ - الأمير حسين (توفي أثناء تعلمه).

من أنجال إبراهيم باشا

٣- الأمير أحمد[١].

٤ - الأمير إسماعيل (الخديوي إسماعيل باشا)*.

٥ - الشيخ نصر أبو الوفا (إمام البعثة) وصاحب كتاب «المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية» وكتاب «تسلية المصاب على فراق الأحباب».

بقية من تخصصوا للفنون الحربية:

٦ - محمد شريف (باشا).

٧- علي مبارك (باشا)*.

٨ - علي إبراهيم (باشا)*.

٩ - حماد عبد العاطي (باشا)*.

١٠ - حسن أفلاطون (باشا)، وكيل وزارة الحربية في عهد توفيق باشا.

١١ - عثمان صبري (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة (١٨٨٩م).

(١) هو أحمد باشا الذي غرق في حادثة كفر الزيات المشهورة، وكان ولي عهد سعيد باشا.

١٢ – علي شريف (باشا) رئيس مجلس شورى القوانين.

١٣ – أباظة مراد حلمي (باشا).

١٤ – محمد عارف (باشا).

١٥ – محمد راشد (باشا).

١٦ – حسن نور الدين (بك)*.

١٧ – مصطفى مصطفى مختار أفندي.

١٨ – عبد الفتاح أفندي.

١٩ – حسن كوجك (باشا)*.

٢٠ – ولي حلمي (بك).

٢١ – سليمان نجاتي (بك) مأمور المدارس الحربية، ثم قاض بمحكمة إسكندرية المختلطة، ثم وكيل محكمة الاستئناف الأهلية سنة (١٨٨٣م).

٢٢ – محمد أفندي.

٢٣ – محمد شاكر أفندي.

٢٤ – أحمد عجيلة (بك).

٢٥ – شافعي رحمي (بك).

٢٦ – أحمد راسخ (بك) مدير الوقائع المصرية، ثم مستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة (١٨٧٦م) وتوفي سنة (١٨٨٥م).

٢٧ – أحمد أسعد أفندي.

٢٨ – منصور عطية أفندي.

obeikan.com

٢٩- قيصر لي أحمد أفندي.

٣٠- خليل أفندي.

٣٣- أحمد نجيب (باشا).

٣٤- حنفي خند (بك).

٣٥- شحاتة عيسى (بك) ناظر مدرسة أركان الحرب في عهد إسماعيل باشا.

٣٦- فريد أفندي.

٣٧- محمد إسماعيل أفندي.

٣٨- خورشد أفندي.

٣٩- صالح أفندي.

٤٠- محمد خفاجي (بك).

٤١- حسين سليمان أفندي.

٤٢- كوجك علي أفندي.

٤٣- حسن شكيب أفندي.

٤٤- صادق سليم (بك) ناظر المهندسخانة في عهد إسماعيل وتوفيق.

٤٥- خورشد برتو أفندي.

٤٦- أحمد بك السبكي*.

٤٧- مصطفى حليم أفندي.

٤٨- محمد شوقي أفندي.

٤٩- لطفي أفندي.

obeikan.com

٥٠ – سعيد نصر (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة (١٩٠٣م).

٥١ – أباظة راشد أفندي.

٥٢ – أحمد حلمي أفندي.

٥٣ – علي فهمي (بك).

٥٤ – محمد مصطفى أفندي.

٥٥ – أحمد خير الله (بك) فيما بعد قاض بالمحكمة المختلطة.

٥٦ – شاكر أفندي.

٥٧ – محمد حسن أفندي.

من تخصصوا للطب والطبيعيات:

٥٨ – أحمد ندا (بك)*.

٥٩ – عبد العزيز الهراوي (باشا) مدير دار الضرب في عهد إسماعيل باشا.

٦٠ – عبد الرحمن الهراوي (بك) مدرس بمدرسة الطب.

٦١ – إبراهيم السبكي أفندي.

٦٢ – محمد الفحام أفندي.

٦٣ – مصطفى الواطي (بك) تخصص لطب الأسنان، وبعد عودته ترأس قسم ترجمة الطبيعيات بفروعها في قلم الترجمة، وصار وكيل مدرسة الطب.

٦٤ – عثمان إبراهيم أفندي تخصص لطب الأسنان، وعهد إلى الاثنين تدريس طب الأسنان في مدرسة الطب ومعالجة المرضى في المستشفى.

٦٥ – محمد أفندي يونس.

obeikan.com

٦٦- محمد أفندي الشرقاوي.

٦٧- بدوي سالم أفندي مدرس الكيمياء والصيدلة بمدرسة الطب.

٦٨- حسن بك هاشم.

٦٩- محمد إبراهيم أفندي تخصص في التعدين.

٧٠- علي عيسى أفندي تخصص في التعدين.

٧١- إبراهيم جركس (بك) مدرس بمدرسة الطب البيطري.

٧٢- عبد الهادي إسماعيل أفندي ناظر مدرسة الطب البيطري في عهد الخديوي إسماعيل.

٧٣- بترو أفندي.

علوم أخرى

٧٤- محمد صادق (باشا)*.

٧٥- عبد الله السيد بك*.

٧٦- نوبار أفندي (هو غير نوبار باشا الوزير المشهور).

٧٧- بولص لابي أفندي.

٧٨- أسطفان خشادور أفندي[1].

٧٩- أوهان أسطفان أفندي.

٨٠- يوسف أسطفان أفندي.

---

(١) عين أحدهما مستشارًا لمحكمة الاستئناف المختلطة سنة (١٨٧٥م)، وتوفي سنة (١٨٧٦م) كما ورد في الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة.

obeikan.com

٨١- أرتين خشادور أفندي[١].

٨٢- عبد الرحمن محو أفندي.

٨٣- حسن الشاذلي أفندي.

البعثة السادسة أرسلت إلى النمسا سنة (١٨٤٥م)

طب العيون

حسين عوف باشا*.

إبراهيم دسوقي أفندي.

الكيمياء الصناعية

مصطفى المجدلي (بك) مدرس بمدرسة قصر العيني.

البعثة السابعة (سنة ١٨٤٧م)

هي بعثة مؤلفة من خمسة من طلبة الأزهر، أرسلت إلى فرنسا لتعلم الحقوق والوكالة في الدعاوى (المحاماة)، وقد ذكرت هذه البعثة في «الوقائع المصرية» دون بيان أسماء أعضائها.

البعثة الثامنة (سنة ١٨٤٧م)

هي بعثة مؤلفة من واحد وعشرين نجارًا أرسلوا إلى إنجلترا على ظهر السفينة الحربية المسماة (الشرقية) التي تم إنشاؤها في ترسانة الإسكندرية صحبة محمد راغب بك ناظر الترسانة لإتقان فن بناء السفن الحربية، وقد ذكر «إسماعيل باشا سرهنك» عن هذه البعثة ما يلي[٢]: «إنه لما أتمت دار الصناعة المصرية بناء الفرقاطة المسماة (الشرقية) سنة (١٨٤٧م) صدر أمر الباشا إلى محمد بك راغب الاستانبولي مدير بناء

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) ج٢، ص٥٢٦.

السفن بدار الصناعة بالإسكندرية أن يسافر عليها إلى إنجلترا لتصفيحها وتركيب آلاتها البخارية، وأرسل معه واحدًا وعشرين نجارًا من نجاري دار الصناعة ليتقنوا فن النجارة هناك مدة وجود الفرقاطة المذكورة بإنجلترا، ثم عادت وعاد معها هو والنجارون في السنة المذكورة، وقد ركبت لها آلات بخارية قوة خمسمائة وخمسين حصانًا».

البعثة التاسعة (سنة ١٨٤٧م)

عدد أعضاء هذه البعثة (٢٥) طالبًا اختيروا من طلبة مدرسة المهندسخانة المتقدمين لإرسالهم إلى إنجلترا للتخصص في الميكانيكا، وبعضهم إلى فرنسا، وإليك أسماؤهم:

حسن أفندي ذو الفقار.

إسماعيل أرناءوط.

أحمد أفندي المهدي.

علي صادق (باشا) فيما بعد وزير المالية.

عثمان عرفي (باشا) فيما بعد قاض بمحكمة الإسكندرية المختلطة، ثم محافظ الإسكندرية.

علي أفندي حسن الإسكندراني.

عبد الله أفندي بيروز.

غانم عبد الرحمن.

إبراهيم سامي (باشا) فيما بعد عضو بقومسيون السكة الحديد.

أحمد طلعت أفندي.

سليمان أفندي سليمان.

عثمان يوسف أفندي.

إسماعيل بوشناق أفندي.

سلامة أفندي الباز.

عمر علي أفندي.

عثمان القاضي أفندي.

عثمان دكروري (بك).

علي أفندي صالح.

جودة عوض (بك).

سليمان موسى (بك).

كلاهما تعلم بإنجلترا ووصل الخط التلغرافي على يدهما إلى السودان.

عباس عبد العزيز.

علي الفداوي أفندي.

سليمان طه أفندي.

خطاب عبد المغيث أفندي.

عيسى جاهين أفندي.

obeikan.com

تراجم طائفة من أعضاء البعثات
وما أدوا لمصر من خدمات

نذكر هنا تراجم طائفة من أعضاء البعثات ليكون لدينا فكرة عامة عن تاريخهم وشخصياتهم وما أدوا لمصر من جليل الخدمات، ولسهولة التبويب رتبناهم طوائف بحسب العلوم والفنون التي تخصصوا لها؛ لا بحسب ترتيب البعثات.

رفاعة بك رافع الطهطاوي
زعيم نهضة العلم والأدب في عصر محمد علي
(١٨٠١-١٨٧٣)

التاريخ والجغرافيا والأدب:

رفاعة بك رافع الطهطاوي
زعيم نهضة العلم والأدب في عصر محمد علي
(ولد سنة ١٨٠١م، وتوفي سنة ١٨٧٣م)

مصريٌّ صميم، من أقصى الصعيد، نشأ نشأة عادية من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون؛ لكنه بذَّ الأقران، وتفرَّد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب؛ ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفسًا عالية، وروحًا متوثبة، وعزيمة ماضيه، وذكاء حادًّا، وشغفًا بالعلم، وإخلاصًا للوطن وبنيه، تهيأت به أسباب الجد والنبوغ فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر، ثم صحب البعثة الأولى من بعثات محمد علي، وارتحل إلى معاهد العلم في باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوربية؛ فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته؛ لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضي العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبرَّ بوعده ووفَّى بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفًا وترجمة وتعليمًا وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيفًا وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عصر إسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوي.

فلنستعرض تاريخ تلك الشخصية الكبيرة التي ازدان بها عصر محمد علي، والتي لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية في تاريخنا الحديث.

نشأته الأولى

هو السيد «رفاعة بن بدوي بن علي بن محمد علي بن رافع»، يتصل نسبه بـ«محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم»، فهو من نسل الحسين، وأمُّه يتصل نسبها بالأنصار.

ولد في «طهطا» بمديرية جرجا، ولذلك سُمي الطهطاوي، وكانت ولادته سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١ ميلادية).

كان أجداده من ذوي اليسار، ثم أخنى عليهم الدهر، فلما ولد المترجم كانت عائلته في عسر، فسار به والده إلى (منشأة النيدة) بالقرب من مدينة جرجا، وأقاما في بيت قوم كرام من أقاربه يقال لهم: بيت أبي قطنة، من ذوي اليسار والمجد، فأقاما هناك، ثم انتقلا إلى قنا، ثم إلى فرشوط، وفي خلال ذلك كان المترجم يحفظ القرآن، ولما عاد إلى طهطا أتم حفظه، وأخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية، فقرأ كثيرًا من المتون المتداولة في ذلك العصر على أخواله وهم بيت علم من الأنصار الخزرجية، وفيهم جماعة من أفاضل العلماء كالشيخ عبد الصمد الأنصاري، والشيخ أبي الحسن الأنصاري، والشيخ فراج الأنصاري والشيخ محمد الأنصاري.

ثم توفي والده فجاء رفاعة إلى القاهرة، وانتظم في سلك طلبة الأزهر سنة ١٨١٧م (١٢٣٢هـ)[1].

دراسته بالأزهر وميله إلى الأدب

بدت عليه مخايل الذكاء والنباهة من صباه، وكان محبًّا للعلم والتحصيل، ذا عزيمة قوية، فجاهد في المطالعة والدرس، وأخذ العلم عن شيوخ عصره. وفي جملة من تلقى عنهم المترجم الشيخ «حسن العطار» شيخ الجامع الأزهر؛ فقد أحبه لما آنس فيه من

(١) رجعنا في هذه البيانات إلى «حلية الزمن» للسيد صالح مجدي بك، وهي في مجموعها لا تختلف عمَّا ذكره علي باشا مبارك في «الخطط التوفيقية» ج١٣، ص٥٣.

الذكاء والإكباب على العلم، وقربه إليه، وحفَّه برعايته، وكان الشيخ رفاعة يتردد عليه كثيرًا في منزله، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ.

وكان الشيخ «حسن العطار» من علماء مصر الأعلام، وامتاز بالتضلع في الأدب وفنونه والتقدم في العلوم العصرية[١]، وكان هذا نادرًا بين علماء الأزهر، فاقتبس منه المترجم روح العلم والأدب، فكانت لتلك الميزة من أسباب نبوغه؛ ذلك أن الأدب قد فتح ذهنه إلى البحث والتفكير وهداه إلى سداد الرأي وحسن الديباجة وسلامة المنطق.

من هنا نشأت ميول «رفاعة بك» منذ نشأته العلمية إلى العلوم العصرية، وإلى الأدب والإنشاء، ويتبين من ذلك فضل الشيخ حسن العطار على المترجم؛ فإنه أول من وجَّه الفقيد إلى الاغتراف من ينبوع الأدب الفياض، وقد بادر الشيخ رفاعة إلى الارتواء من منهله العذب، وهو بعد في الأزهر، فقرأ كثيرًا من كتب الأدب، ومهر في فنونه، وإذا تأملت في رحلته «تخليص الإبريز» -وهي أول كتاب ألفه في باريس- شهدت فيها ما يدلك على سعة مادته من بدائع الأدب العربي في النثر والنظم.

والشيخ العطار -كما يقول رفاعة بك[٢]- هو الذي أشار عليه قبل رحيله إلى فرنسا أن يدوِّن رحلته في تلك الأقطار، فكانت هذه الرحلة «تخليص الإبريز» باكورة مؤلفاته، فالشيخ العطار كما ترى له يد طولى في تكوين الفقيد، وهو الذي اختاره إمامًا للبعثة كما سيجيء بيانه.

---

(١) يقول «رفاعة بك» عن الشيخ حسن العطار: إنه كان له حظ في العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية، وأنه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الأطباء وغيرها، وكان يطلع على الكتب المعربة، وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية، وله بعض تآليف في الطب وغيره. (عن مناهج الألباب المصرية لرفاعة بك، ص٣٧٦، طبعة ثانية).

(٢) «تخليص الإبريز» ص٣.

تدريسه في الأزهر

لم يمض على المترجم بالأزهر بضع سنوات حتى صار من طبقة العلمار، وتولى التدريس فيه سنتين، وكان يتردد بين حين وآخر على «طهطا» ويلقي بعض الدروس بجامع جده أبي القاسم، فامتازت دروسه بجاذبية كانت تحببه إلى المستمعين وترغبهم في الاستزادة من بحر علمه، وهنا ظهرت خاصية جديدة في المترجم، وهي مقدرته ونبوغه في التعليم والتثقيف، وليس كل عالم ينال هذه الموهبة؛ بل هي ميزة تحتاج إلى جاذبية معنوية، وكفاءة ممتازة، ومما يذكر عنه أن علماء طهطا شهدوا له بالسبق في هذا المضمار، وكانت دروسه تحفل بالسامعين وطلبة العلم.

قال «صالح مجدي بك» في هذا الصدد[1]: «وكان رحمه الله حسن الإلقاء، بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى في الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك، وكان درسه غاصًّا بالجم الغفير من الطلبة، وما منهم إلا من استفاد منه، وبرع في جميع ما أخذه عنه؛ لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب، سهل التعبير، مدققًا محققًا، قادرًا على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب، ولا كد ولا نصب».

اتصاله بالجيش

قضى الشيخ رفاعة ثماني سنوات في الأزهر، وصنَّف وألف ودرس وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وكان إلى ذلك الحين فقيرًا رقيق الحال؛ إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلي والعقار، وكان يستعين على معاشه بإعطاء دروس لحسين بك نجل المرحوم طبوزأوغلي، وكان كذلك يلقي بعض الدروس بالمدرسة التي أنشأها محمد لاظ أوغلي.

---

(١) في رسالته «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن» وهي ترجمة حياة رفاعة بك بقلم السيد صالح مجدي أحد تلاميذه.

وفي سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) عين واعظًا وإمامًا في أحد ألايات الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد علي، فانتظم في سلك ألاي حسن بك المناسترلي، ثم انتقل إلى ألاي أحمد بك المنكلي، وكلاهما من أعظم قواد الجيش المصري في عصر محمد علي، وظل الشيخ رفاعة مضطلعًا بوظيفة الإمامة من سنة (١٢٤٠هـ) إلى شعبان من السنة التالية.

بدأت حياة المترجم العملية بالتدريس في الأزهر، ثم بتقلده وظيفة الإمامة في الجيش، فانتقل بذلك من بيئة الأزهر إلى بيئة جديدة، وهي الجيش النظامي، ونعتقد أن هذا الانتقال قد أحدث تطورًا في حياته وفي سيرته وذهنيته؛ لأنه بدأ يتصل بالحياة العسكرية، ويألف نظامًا لا عهد له به من قبل، وعيشة فتحت ذهنه إلى نواح جديدة من الحياة والتفكير، ولا بد أن تكون الحياة العسكرية التي اتصل بها عن كثب قد أفادته بما فيها من احترام للنظام، وتقدير لمزاياه وإيلاف لأوضاعه وإحساس بالدفاع عن الذمار والكفاح في سبيل الوطن، ومواجهة للأخطار، مما يغرس في النفس روح الوطنية والشجاعة والإقدام.

ويلوح لنا أن هذه المعاني قد انطبعت إلى حد كبير في نفس المترجم، فقد عاش طوال عمره ذا أنفة وإباء، يكره الذل، ولا يقيم على الضيم، محبًّا لبلاده يبذل في سبيلها راحته ووقته وعلمه وذكاءه، وعاش كذلك محبًّا للنظام في كل عمل تولاه؛ في تلقي العلوم، وفي التأليف والتعريب، وفي حسن تنظيم المعاهد التي تولى إدارتها.

انتظامه في سلك البعثات وحياته في باريس

ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن توفيق المترجم أن اختاره محمد علي ضمن أعضاء البعثة الأولى التي سافرت إلى فرنسا سنة (١٨٢٦م).

ويقول علي باشا مبارك[١]: «إن محمد علي باشا طلب إلى الشيخ العطار (شيخ الجامع الأزهر) أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة».

فهو إذن لم يكن مرسلًا بصفته طالبًا؛ بل كان إمامًا للبعثة، وتقرر له مرتب يوزباشي[٢].

وهنا يبدأ عهد جديد من حياة المرتجم؛ بل قل: إن باب النبوغ قد انفتح أمامه على مصراعيه، فقد أخذ يستثمر المواهب الدفينة في نفسه، وأهمها الذكاء ومضاء العزيمة، وقوة العارضة، وسلامة المنطق، وحب العلم والمثابرة في الإكباب عليه، فوصل بجده وذكائه إلى مكانة عالية من العلم والثقافة.

لم يكن مطلوبًا من إمام البعثة أن يتعلم «علوم الفرنسيس» وأنظمتهم؛ بل يكفيه أن يؤدي وظيفة الإمامة لأعضاء البعثة، وما إليها من الوعظ والإرشاد.

ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة، فلم تتحرك نفس أحد منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم في فرنسا، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة، أما الشيخ رفاعة فكان ذا نفس طامحة إلى العلا، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية، وعكف عليها من تلقاء نفسه رغبة منه في تحصيل علومها وآدابها.

ويدلك على مضاء عزيمته وولعه بالدرس أنه -كما يقول عنه علي باشا مبارك- «شرع عند ركوب الباخرة من الإسكندرية في تعلم مبادئ اللغة الفرنسية بهمة عالية وعزيمة صادقة، واتخذ له بعد وصوله إلى باريس معلمًا خاصًّا على نفقته». ولما استقر به المقام في باريس أكبَّ على العلوم يغترف من مناهلها، وتعرف إلى العلماء يقتبس منهم الحكمة والمعرفة. قال علي باشا مبارك: «وما لبث في هذه البلاد حتى عرفه أعاظم

(١) في «الخطط التوفيقية» ج١٣، ص٥٤.

(٢) كانت الرتب العسكرية سارية في السلك المدني.

العلماء وأكابرهم، وكان للعالم المشهور مسيو «جومار» عليه فضل التعهد بالإرشاد والتعليم، والمحبة الخصوصية، وقد ساعده مساعدات جمة في هذا البلاد، وكذلك حاله مع العالم الشهير (المستشرق) البارون دي ساسي، وفي مدة إقامته بباريز من سنة ١٢٤١هـ إلى سنة (١٨٢٦-١٨٣١م) نبغ في العلوم والمعارف الأجنبية، وعلى الخصوص فن الترجمة في سائر العلوم على اختلاف اصطلاحها من حيث الاستعمال والمفردات، وأكبَّ كل الإكباب على إدامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة»[١].

ويقول «رفاعة بك» عن نفسه[٢]: إنه ابتدأ يتعلم مبادئ الفرنسية وهو في مارسيليا، واستمر في دراستها بباريس إلى تعلمها في ثلاث سنوات[٣].

وقد اتجهت ميوله إلى دراسة التاريخ والجغرافية، وكذلك درس الفلسفة والآداب الفرنسية؛ فنال حظًّا وافرًا منها، وقرأ مؤلفات فولتير، وجان جاك روسو، ومونتسكيو وراسين؛ فاتسعت مداركه وارتقت أفكاره، ومما ذكره عن «مونتسكيو» قوله: «وقرأت أيضًا مع مسيو شواله جزأين من كتاب يسمى «روح الشرائع»، مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له: مونتسكيو، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبني على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجي، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضًا مونتسكيو الشرقي؛ أي مونتسكيو الإسلام»[٤].

وقرأ أيضًا بعض الكتب في علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات، ومالت نفسه أثناء دراسته بباريس إلى التأليف والتعريب، فكان ينتهز أوقات فراغه فيعرب

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٣، ص٥٤.
(٢) في كتابه «تخليص الإبريز» ص٣٦.
(٣) «تخليص الإبريز» ص١٥٨.
(٤) ص١٦٠.

ويؤلف، فوضع رحلته وسماها «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وعرَّب نحو اثنتي عشرة رسالة؛ وهي:

١ - نبذة في تاريخ الإسكندر الأكبر، مأخوذة من تاريخ القدماء.

٢ - كتاب أصول المعادن.

٣- تقويم سنة (١٢٤٤) من الهجرة، ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام، متضمنًا شذرات علمية وتدريبية.

٤ - كتاب «دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدها».

٥ - مقدمة جغرافية طبيعية.

٦ - قطعة من كتاب العلامة ملطبرون في الجغرافية.

٧- ثلاث مقالات من كتاب لجندر في علم الهندسة.

٨- نبذة في علم الهيئة.

٩ - قطعة من عمليات الضباط.

١٠ - أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج أصلًا لأحكامهم.

١١ - نبذة في الميثولوجيا؛ يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم.

١٢ - نبذة في علم سياسة الصحة.

وترجم في باريس كتابه «قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر» وقد بدأ يترجم جغرافية ملتبرون كما رأيت ضمن رسائله الاثنتى عشرة.

وكان يجتمع بطائفة من العلماء والمستشرقين، فاقتبس منهم واتصل بهم بصلات الود والصداقة، وبديهي أن اتصاله بهم يدل على ما جبل عليه من الميل إلى العلم والعلماء والرغبة في الاستزادة من المعارف، وقد نشر في رحتله «تخليص الإبريز»

obeikan.com

رسالتين من المستشرق المشهور البارون «سلفستر دي ساسي» تدلان على ما ناله من المكانة في نفسه، كتب الأولى لمناسبة إهداء المترجم رحتله إليه، وكتب الثانية قبل أن يغادر رفاعة بك باريس عائدًا إلى مصر قال فيها:

«بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعة، يحصل لي حظ عظيم إذا جاء عندي يوم الإثنين الآتي في الساعة (٣) إن أمكنه أن يسرني برؤيتي له لحظات لطيفة، ويحصل لي أيضًا غاية الانبساط إذا بعث لي أخباره بعد وصوله إلى القاهرة، فإذا لم يتيسر لي رؤيته طلبت له طريق السلامة، ولا أزال أتذكر دائمًا آثاره وأستنشق أخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر البارون سلفستر دي ساسي».

فمثل هذه الرسالة لا تكتب للشيخ رفاعة إلا إذا كان قد نال في نفوس علماء فرنسا مكانة سامية، وهذه المكانة قد أحرزها بذكائه وإكبابه على العلم ومساجلته العلماء في مجالسهم ومعاهدهم، مما حببه إلى نفوسهم وجعل له عندهم ذلك المقام الممتاز.

مباحثه في الدستور

قد تعجب أن يكون لرفاعة بك مباحث في الدستور، فالمعروف أن هذه المباحث حديثة العهد في تاريخ مصر القومي، لكن الواقع أن رفاعة بك هو فيما نعلم أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية؛ ذلك أنه درس أثناء إقامته بباريس نظام الحكم في فرنسا، وعرب في كتابه «تخليص الإبريز» دستور فرنسا في ذلك الحين[1] وما تضمنه من نظام المجلسين، واختيار أعضائهما، وحقوق الأمة أفرادًا وجماعات، وهذا يدلك على ميله الفطري إلى العلوم السياسية، ولا يتجه فكر المرء في ذلك الحين إلى خوض هذه المباحث إلا إذا كان ذا رأس مفكر وقلب يخفق بحب الوطن.

وهو لا يكتفي بالتعريب فحسب؛ بل له على مواد الدستور الفرنسي تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه، وميل فطري إلى النظم الحرة.

---

(١) هو دستور سنة (١٨١٤م) الذي استمر معمولًا به إلى سنة (١٨٣٠م).

فقد قال تعليقًا على نصوص الدستور[١]:

«ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف، وأن السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) وأن ديوان البير[٢] يمانع عن الملك، وديوان رُسُل العمالات[٣] يحامي عن الرعية، والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن (سنة ١٨٢٧م) ويتخذونه أساسًا لسياستهم هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم لويز الثامن عشر، ولا زال متبعًا عندهم ومرضيًّا لهم، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل».

وقال في موضع آخر (ص٨٠): «قوله في المادة الأولى أن سائر الفرنسيس متساوون قدام الشريعة؛ معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع، لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون، حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك، وينفذ عليه الحكم كغيره، فانظر إلى هذه المادة فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرًا إلى إجراء الأحكام، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية».

وقال تعليقًا على المادة الثانية الخاصة بالمساواة في الضرائب:

«وأمَّا المادة الثانية فإنها محض سياسة، ويمكن أن يقال: إن الفِرَد (جمع فِرْدة أي ضريبة) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الإسلام -كما هي في تلك البلاد- لطابت النفس خصوصًا إذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال، أو

(١) «تخليص الإبريز» ص٧٢.

(٢) مجلس الشيوخ Champre des Pairs وقد نقل كلمة «بير» Pairs الفرنساوية كما هي.

(٣) رسل جمع رسول؛ أي نائب، والعمالات جمع عمالة؛ أي مديرية، يريد مجلس النواب ويسميهم أحيانًا «نواب الرعية» وأيضًا «أمناء الرعية».

كانت ممنوعة بالكلية، وربما كان لها أصل في الشريعة على بعض أقوال مذهب الإمام الأعظم، ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء، الخراج عمود الملك، وفي مدة إقامتي بباريس لم أسمع أحدًا يشكو من المكوس والفرد (الضرائب) والجبايات أبدًا».

وقال تعليقًا على المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأي والنشر: «وأمَّا المادة الثامنة فإنها تقوي كل إنسان على أن يُظهر رأيه وعلمه، وسائر ما يخطر بباله، مما لا يضر غيره، فيعلم الناس سائر ما في نفس صاحبه».

وامتدح الصحافة، وهو يسمي الصحف «الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات»[1]، وقال عنها: «إنَّ الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية؛ أي داخل المملكة أو خارجها، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى؛ إلا أنها ربما تتضمن أخبارًا تتشوف نفس الإنسان إلى العلم بها، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير؛ لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم، ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلًا عظيمًا أو رديئًا وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلومًا للخاص والعام؛ لترغيب صاحب العمل الطيب، وردع صاحب الفعلة الخبيثة، وكذلك إذا كان الإنسان مظلومًا من إنسان كتب مظلمته في هذه الورقات، فيطلع عليها الخاص والعام، فتعرف قضية المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل، وتصل إلى محل الحكم (المحكمة) ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر».

وقال عن المادة التاسعة (الخاصة بحرمة الأملاك): «وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف، وهي واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف».

---

(١) جمع «كازيطة» مأخوذة من الكلمة الفرنسية Gazette.

وقال تعليقًا على المادة الخامسة عشرة (التي تنص على أن السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشيوخ): «وفي المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة، وهي أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب؛ المرتبة الأولى للملك ووزرائه، والثانية مرتبة البيرية الحامية للملك، والثالثة مرتبة رسل العمالات، الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لا يظلم أحد، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها بنفسها، وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها بنفسها، وهي آمنة بالكلية».

ثم ذكر تعديل الدستور الذي أعقب ثورة سنة (١٨٣٠م) وأسهب في الكلام عن تلك الثورة التي شهدها في باريس، وظاهر من كلامه مبلغ عطفه على الثورة وقضيتها، ومما قاله في هذا الصدد:

«فلما كانت سنة (١٨٣٠م) وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر[١]؛ منها النهي عن أن يظهر الإنسان رأيه وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة خصوصًا للكازيطات (الجرائد) اليومية؛ فإنها لا بد لطبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة[٢]، فلا يظهر فيها إلا ما يريد إظهاره؛ مع أن ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون، والقانون لا يصنع إلا باجتماع آراء ثلاثة؛ رأي الملك، ورأي أهل ديواني المشورة[٣]، فصنع الملك وحده ما لا ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره».

فهذا كلام يدل على أن صاحبه يفهم روح الدستور والنظم الدستورية حق الفهم، ويعرف معنى سلطة الأمة، ويؤمن بأن الأمة مصدر السلطات.

---

(١) هي الأوامر الشهيرة Ordonnances التي أصدرها الملك «شارل العاشر» وكانت سببًا لقيام ثورة سنة (١٨٣٠م).

(٢) الرقيب على الصحف.

(٣) البرلمان.

وأدل على ذلك، رأيه في موقف الملك «شارل العاشر» لما قامت الثورة في باريس قال: «فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج، أمر بجعل المدينة محاصرة حكمًا، وجعل قائد العسكر أميرًا من أعداء الفرنساوية، مشهورًا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي، فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح؛ فإن عفو الملك أبقى للملك، ولما ولي على عساكره إلا جماعة عقلاء، أحبابًا له وللرعية غير مبغوضين ولا أعداء، ولكنه أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه، ويحسن قول بعضهم:

عليك بالحلم وبالحياة والرفق ... بالمـــذْنب والإغـضـــاء
إن لم تُقـــلِ من يُقـــالُ ... يُوشِك أن يصيبك الجُهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده، وبنظير ما نواه لأضداده، فلو أنعم في إعطاء الحرية لأمة بهذه الصفة حَرِية، لما وقع في مثل هذه الحيرة، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة، لا سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها واعتادوا عليها، وصارت عندهم من الصفات النفسية، وما أحسن قول الشاعر:

وللناس عادات وقد أَلِفُــــوا بها ... لهـــا سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم ... فذاك ثقيل عندهم وبغيض»(١)

فتأمل في هذا الكلام! وتدبر معانيه، واذكر أنه كتب سنة (١٨٣٠م)، أي منذ مائة سنة، تجد أنه كلام عليه طابع المبادئ الدستورية العصرية، تتمشى فيه روح الحرية والديمقراطية، ولا يصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة والشعور بالحقوق القومية، ولو لم يكن رفاعة بك بمثل هذه الصفات لما صدر عنه مثل هذا القول؛ بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحًا عما شاهده في باريس من ثورة الشعب على الحكم

(١) «تخليص الإبريز» ص١٧٢.

الاستبدادي، وما كانت هذه الثورة تترك في نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولي الأمر، ولكن روح رفاعة كانت روحًا حرة متطلعة إلى المثل العليا، في العلم، والأخلاق، والسياسة، فلا غرو أن صادفت مبادئ حقوق الشعب موضع الإقناع من نفسه.

وتأمل فيما ذكره المترجم عن الجنرال «لافاييت» أحد زعماء الثورة، تجده يقول:

«وفي اليوم التاسع والعشرين في الصباح ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة، ووقع أيضًا في أيديهم قصر طويلري ولوور فملكوها، ونشروا عليهما بيرق الحرية، فلما سمع بذلك سر عسكر (قائد الجند) المأمور بإدخال أهل باريس في طاعة السلطان (الملك شارل العاشر) رجع، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد، حتى أن العساكر دخلت تحت بيرق الرعية، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتي وديوان مؤقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت عسكر المسمى لافييته، وهو الذي قاتل في الفتنة الأولى للحرية أيضا[1]، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية، ويحامي عنها ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البوليتيقة (السياسية)».

فرفاعة بك يمجد في الجنرال «لافابيت» دفاعه عن الحرية، وثباته على مبدئه السياسي، وعدم تقلبه مع الأهواء، وهي محامد وصفات اشتهر بها «لافابيت» في كل أدوار جهاده، فوصل بذلك إلى المنزلة السامية التي نالها، وصار كما يقول المترجم يكرم ويعظم كما يعظم الملوك، وهذا من أبدع ما يقال في تمجيد الوطنية الصادقة والجهاد الخالص لوجه الله والوطن.

وقد ظل «رفاعة بك» بعد عودته إلى مصر متأثرًا بالتعاليم الدستورية التي تلقاها في باريس، وحسبك دليلًا على بقائه محتفظًا بتلك المبادئ السامية على مدى السنين أنه

(١) يريد الثورة الفرنسية الكبرى سنة (١٧٩٨م).

عد أكبر عمل للخديو إسماعيل إنشاءه مجلس شورى النواب[١]، فقد قال عنه في معرض الثناء عليه: «ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الأهالي على أن يستنيبوا عنهم نوابًا ذوي فكرة ألمعية، ليتذاكروا في شأن مصالحهم[٢] المرعية، لكفاه ذلك شرفًا ومجدًا، وعزًّا وسعدًا حيث صار مستوليًا على أمة حرة الرأي، باستشارتها في حقائق التراتيب والتنظيمات التي يراد تجديدها لأجلهم[٣].

عودته إلى مصر

عاد «رفاعة بك» إلى مصر سنة (١٨٣١م)، فكأنه قضى في باريس نحو ست سنوات مكبًّا على الدرس والتحصيل، يطالع، ويقرأ، ويكتب ويعرب، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة، وينعم النظر في أحوال الشعوب الأوربية وتاريخها وأسباب حضارتها وتقدمها، واستقر عزمه وهو في باريس على أن يخدم بلاده من طريق نقل علوم الإفرنج إلى مواطنيه، فتتسع مداركهم، وتسموا أفكارهم، ويسلكون سبيل الشعوب التي هذبها العلم والعرفان، ومالت نفسه إلى التعريب آخذًا بنهج الدولة العباسية، إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف في عهدها بترجمة كتب اليونان إلى اللغة العربية، قال في هذا الصدد وهو بعد في باريس: «وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتى تعد دولته من الأزمنة التي تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة في مصر مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد»[٤].

ولقد بر بوعده، فملأ البلاد علمًا وحكمة، وحمل لواء النهضة العلمية وخدمها بتآليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يده في مدرسة الألسن وغيرها.

---

(١) سنة (١٨٦٦م).

(٢) أي مصالح الأهالي.

(٣) «مناهج الألباب المصرية» ص٣٢٣، طبعة ثانية.

(٤) «تخليص الإبريز» ص٢٠١.

أعماله بعد عودته

كانت البلاد عند عودة «رفاعة بك» في حاجة إلى التعريب لنقل العلوم الأوربية إلى لغة البلاد، فتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بأبي زعبل.

وفي سنة ١٨٣٣م (سنة ١٢٤٩هـ) انتقل من مدرسة الطب إلى المدفعية (الطوبجية) بطره، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية، وله فيها رسالة مترجمة في الهندسة العادية، وهي من الرسائل التي كانت تدرس في المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا.

وفي غضون ذلك وقع وباء بالقاهرة سنة (١٢٠٠) فسافر إلى طهطا وترجم بها مجلدًا من جغرافية ملتبرون التي بدأ بتعريبها في باريس، ثم عاد به إلى القاهرة وقدمه إلى محمد علي فنال إعجابه، وأجزل له العطاء، وأنعم عليه برتبة صاغ قول أغاسي، واستمر بمدرسة طره إلى سنة (١٢٥١).

مدرسة الألسن

ثم رأى المترجم أن البلاد في حاجة إلى طبقة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأفرنكية وخاصة الفرنسية، وليكونوا صلة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية، وينهضوا بالأداة الحكومية في المناصب التي تعهد إليهم، فاقترح على محمد علي باشا إنشاء مدرسة الألسن، وكان من مزايا محمد علي أنه يحسن تقدير الاقتراحات والآراء السديدة التي تعود على البلاد بالخير والتقدم، فبادر إلى إنفاذ الاقتراح وأنشأ مدرسة الألسن بالقاهرة سنة (١٨٣٦م)، واختار لها سراي الألفي بالأزبكية بجوار قصر «زينب هانم» كريمة محمد علي (حيث فندق شبرد)، وهذا يدلك على مبلغ عنايته بشأنها، وكانت تعرف حين إنشائها بمدرسة الترجمة، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن، وعهد بنظارتها في السنة التالية إلى الشيخ رفاعة، وهنا تهيأت فرصة جديدة

لظهور نبوغ المترجم كعالم محقق، ورئيس قدير، ومعلم كفء، ومرب لا يشق له غبار، فلقد قام بإدارة تلك المدرسة خير قيام، واختار لها التلاميذ من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر، فبلغ عددهم في بداءة عهدها خمسين تلميذًا، ثم زاد حتى صار (١٥٠)، وعني بتثقيفهم وتنشئتهم النشأة الصالحة حتى تخرج منها نخبة من العلماء والشعراء والأدباء ممن ازدان بهم تاريخ النهضة العلمية والأدبية.

كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية والإنجليزية، وعلوم التاريخ والجغرافية، والشريعة الإسلامية، والشرائع الأجنبية، فهي أشبه ما تكون بكلية للآداب والحقوق، فلا غرو أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر.

وكان رفاعة بك يتولى التدريس فيها بنفسه، يعاونه طائفة من خيرة المصريين والأجانب؛ ذكر علي باشا مبارك من أساتذتها الوطنيين الشيخ محمد الدمنهوري، والشيخ علي الفرغلي الأنصاري (ابن خال رفاعة بك)، والشيخ حسنين حريز الغمراوي، والشيخ محمد قطة العدوي، والشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوي، والشيخ عبد المنعم الجرجاوي، وكلهم من علماء ذلك العصر.

واشتهر رفاعة بك بغيرته على تثقيف تلاميذ المدرسة بلا كلل ولا هوادة، وكان في بعض الأحيان كما يقول علي باشا مبارك: «يمكث نحو ثلاث ساعات أو أربع ساعات يلقي الدروس واقفًا على قدميه في دروس اللغة، أو فنون الإدارة أو الشرائع الإسلامية والأجنبية، وكذلك كان دأبه معهم في تدريس فنون الآداب العالية».

وأحيل عليه في سنة (١٢٥٧هـ) علاوة على نظارة مدرسة الألسن نظارة المدرسة التجهيزية التي كانت بأبي زعبل ثم نقلت إلى الأزبكية وألحقت بمدرسة الألسن، وأساتذاتها من تلاميذ هذه المدرسة، ومعهد للفقه والشريعة الإسلامية، ومدرسة محاسبة، ومدرسة إدارة إفرنجية، فكان رفاعة بك يدير هذه المعاهد مجتمعة؛ أي أنه كان

بمثابة مدير جامعة، وأحيل عليه تفتيش مدارس الأقاليم، وأسندت إليه وقتًا ما رئاسة تحرير «الوقائع المصرية».

وفي سنة (١٢٥٨هـ) شكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن، ونال المترجم بعد سنة ونصف من إنشاء هذا القلم رتبة القائمقام، ونال سنة (١٢٦٢هـ) رتبة أميرالاي لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون، فصار يدعى «رفاعة بك» بعد أن كان الشيخ رفاعة، وكانت هذه الرتب بمثابة مكافأة معنوية له على ما أداه من الخدمات في المناصب التي عهدت إليه، كما أنها دليل على حسن تقدير الحكومة في ذلك العصر للعلماء العاملين، وتشجيعهم على متابعة جهودهم وأبحاثهم، ومن الحق أن نقول: إن تنشيط الحكومة لرفاعة بك كان له دخل في وفرة إنتاجه العلمي، فقد كان موضع رعاية ولاة الأمور ومعاونتهم، فأنعم عليه محمد علي بـ(٢٥٠) فدانًا، وأقطعه إبراهيم باشا «حديقة نادرة المثال في الخانقاه تبلغ ٣٦ فدانًا» على ما يقول علي باشا مبارك[1]، وأنعم عليه سعيد باشا بمائتي فدان، وإسماعيل باشا بـ(٢٥٠) فدانًا، فيكون مجموع ذلك نحو (٧٠٠) فدان. ولا شك أن هذه الإنعامات الكبيرة من الوسائل التي تنهض بدولة العلم والأدب.

رفاعة بك في منفاه بالخرطوم

لم يزل رفاعة بك ناظرًا لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة إلى أن أقفلت في عهد عباس باشا الأول سنة (١٨٥١م)، ولم يكتف عباس بإقفالها؛ بل أمر بإرسال رفاعة بك إلى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بإنشائها في الخرطوم.

وغريب أن عباس باشا الذي يقفل المدارس في القطر المصري يعنى بإنشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم، نعم إن فتح المدارس في السودان قاطبة أمر مطلوب ومرغوب فيه لذاته، فما السودان إلا جزء من مصر، ونشر لواء العلم والمعارف في

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٣، ص٥٤.

أنحائه واجب على الحكومة، ولكن إقفال المدارس في مصر ينم على محاربة عباس باشا للعلم والتعليم، فكيف هذه النزعة مع التفكير في فتح مدرسة ابتدائية بالخرطوم يرسل إليها جماعة من أركان النهضة العلمية في مصر، وعلى رأسهم زعيم هذه النهضة رفاعة بك، وفيهم محمد بيومي أفندي كبير أساتذة الهندسة والرياضيات في مدرسة المهندسخانة، وقد توفي في منفاه بالخرطوم، وأحمد طائل أفندي أستاذ الرياضيات، وغيرهم. ولا يقبل المنطق أن يكون الغرض من إرسال هؤلاء الأقطاب إلى السودان نشر العلم في ربوعه؛ إذ لو كان يقصد خدمة العلم بإنشاء «مدرسة ابتدائية بالخرطوم» لما كان معقولًا أن يقع الاختيار على كبير علماء مصر في ذلك العصر ليتولى نظارتها، ولا أن يعهد بتدريس الحساب فيها إلى كبير علماء الرياضيات بين أساتذة مدرسة المهندسخانة، فلا بد أن يكون للأمر سر آخر غير الرغبة في إنشاء المعاهد العلمية.

وقد يكون سره الحقيقي رغبة عباس باشا في إقصاء علماء مصر إلى السودان، فكما أنه أقفل مدارس مصر تراءى له أن يبعد عنها علماءها الأعلام، وقد وشى له في حق رفاعة بك فاتسع صدره للوشاية، ولم ير وسيلة للتخلص من رفاعة بك إلا إرساله إلى السودان، وكان الذهاب إلى السودان في ذلك العصر يعد نفيًا مقصودًا به العقاب والقصاص، وخاصة لمن كان في منزلة رفاعة بك، ولم أتبين ماهية هذه الوشاية من أقوال من ترجموا له[1]. أما رفاعة بك ذاته فلم يزد في هذا الصدد عن قوله: «وفي سنة (١٢٦٧هـ) كنت سافرت إلى السودان بسعي بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل، وتوفي نصف من بمعيتي من الخوجات المصريين»[2].

---

(١) ترجم له من المتقدمين «علي باشا مبارك» في «الخطط التوفيقية» ج١٣ ص٥٣، و«صالح مجدي بك» في رسالته «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن». ومن المعاصرين «جرجي زيدان بك» في كتابه «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» ج٢ ص١٩، و«محمد الصادق حسين بك» في مجلة «السياسة الأسبوعية» السنة (٢) عدد (٦٤).

(٢) «مناهج الألباب المصرية» ص٢٦٥، طبعة ثانية.

ويلوح لي أن لكتابه «تخليص الإبريز» سببًا يتصل بنفيه؛ إذ لا يخفى أنه طبع للمرة الثانية سنة (١٢٦٥هـ) أي في أوائل عهد عباس باشا، والكتاب كما مر بك يحوي آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد، وعباس باشا الأول كما في طبعه مستبدًّا غشومًا، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما في كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له، ولا غرابة في ذلك، فلو أن هذا الكتاب ظهر في تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان من المحقق أن يكون سببًا في هلاك صاحبه، فمن الجائز أن يكون عباس باشا قد رأى نفي رفاعة وأمثال رفاعة إلى السودان ليبعدهم ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر، واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهي إنشاء مدرسة بالخرطوم، والله أعلم.

كان رفاعة بك يشعر في الخرطوم بأنه في منفى سحيق، ويعلم أن الحكومة إنما أقصته إلى السودان لتتخلص منه، لا لتفتح مدرسة ابتدائية، ولقد أحس بغضاضة النفي في بدء عهده به، ولكنه قابل المصاب بالصبر والجلد، وعاودته عزيمته التي لا تعرف الكلل، فأخذ يسري عن نفسه هم النفي والعزلة بتعريب كتاب «تليماك»[1]. وإنك لتلمح من مقدمة كتابه مبلغ تألمه مما جوزي به على جليل خدماته للعلم والنهضة العلمية، والوطني في محنته يذكر ما أداه لوطنه من خدمات، كأنما يراجع نفسه ويحاسبها ليتعرف أسباب محنته، فلا يزداد يقينًا إلا أنه جوزي جزاء سِنمار، وقوبل على إحسانه بالإساءة والنكران، وكذلك فعل رفاعة بك فقد جمع في كلمات وجيزة ما فصَّله التاريخ من خدماته الجليلة؛ قال في مقدمة كتاب «تليماك»:

«أما بعد فيقول المرتجي أن يكون لوطنه خير نافع، رفاعة بدوي رافع، ناظر قلم الترجمة بديوان المدرس، قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية، الفائقة على سائر الأمصار، في عصر المدة المحمدية العلوية، السامي على سائر الأعصار، بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة، وسنين عديدة، نظارة وتعليمًا، وتعديلًا وتقويمًا، وترتيبًا وتنظيمًا،

(١) «مواقع الأفلاك في أخبار تليماك».

وتخرج من نظارات تعليمي من المتفننين رجال لهم في مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال، وفي صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال، وحماة صفوف لا يُبارون في نضالٍ ولا سجال، وعرَّبت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة، من كل كتاب عظيم المنافع، وتوفق حسن تمثيلها في مطبعة الحكومة وطبعها، ومالت طباع الجميع إلى مطبوع ذوقها وطبعها، وسارت بها الركبان في سائر البلدان، وحدا بها الحادي في كل وادٍ، وقصدها القصَّاد كأنها قصائد حسان، وكان زمني إلى ذلك مصروفًا، وديدني بذلك معروفًا، مجارَاةً لأمير الزمن[1]، على تحسين حال الوطن، الذي حبُّه من شُعَب الإيمان، وفي مدة نحو ثلاثين سنة لم يحصل لهمتي غتور ولا قصور.

فإذا ملكتَ فجُدْ فإن لم تستطع ... فاجهدْ بوسعك كله أن تَنْفَعا

وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر، إلى بلاد السودان وليس فيما قضاه الله مفر، فقمت برهة خامد الهمة، جامد القريحة في هذه الملمة، حتى كاد يتلفني سعير الإقليم الفائر بحره وسمومه، ويبلغني فيل السودان الكاسر بخرطومه؛ ومع ذلك فكنت في الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر:

فما أنا للأيام غير محارب ... أصحابها مستبشرًا متهللا
فإن كان حظي رامحًا كنت رامحًا ... وإن كان حظي أعزلًا كنت أعزلا

فكيف وأن لي نصيبًا في السعود المقبلة، والعهود المستقبلة، وحظًّا من الأوقات المفيدة، وسهمًا من العدالة أباعد به عني وجوه هذه البلاد البعيدة، فما تسليت إلا بتعريب تليماك، وتقريب الرجاء بدور الأفلاك».

أقول: ولرفاعة بك بعض العذر في تبرمه من الإقامة في السودان؛ فإنه فضلًا عن شعوره بأنه لم يذهب إليه بإرادته واختياره وأنه إنما كان مضطهدًا منفيًّا على غير ذنب

(١) يريد محمد علي.

جناه، فقد شهد في منفاه مصرع زميله «محمد بيومي» كبير علماء الرياضيات في عصره، والظاهر أن صحته وبنيته لم تحتملا غضاضة النفي وسوء المناخ، فعاجلته منيته في الخرطوم، فهذا الحادث الأليم كان له أثر عميق في نفس رفاعة بك جعله يشكو ويتململ من طول إقامته في منفاه، ولولا ذلك لما أفاض في الإعراب عن ألمه إلى الحد الذي أخرجه عن جادة الصبر والاعتدال، فما ذنب «وجوه تلك البلاد البعيدة» التي يطلب إلى العدالة أن تباعد به عنها؟ إنه لا شك كان في شدة المحنة حتى ضاق صدره بما يعانيه من الألم، على أنه ما لبث أن استمسك بخصاله الحميدة من الصبر على المكاره، ومغالبة الشدائد، فراض نفسه على احتمالها، والصبر على آلامها، وإنك لتتبين نفسيته وما جبل عليه من قوة العزيمة وصدق الإيمان في قوله: «فما أنا للأيام غير محارب إلخ» فإن هذا القول يدل على قوة نفس كبيرة ارتضت مغالبة الأيام ومقاومة المحن، ويتصل بهذا المعنى قوله عن نفسه:

رفاعة خمس المنظوم مرتجلًا قَرِيضه وهو بالخرطوم قد وَجِلا
قالت هَواتِفه بالله كن رجلًا فإن جَدَّك (طه) للخطوب جلا
فأمر خطبك هذا الحد يحسمه

والحق أن «رفاعة بك» كان في منفاه رجلًا بكل معاني الرجولة، فلم يستسلم لليأس، ولم تفتر عزيمته، ولا جمدت قريحته، وحسبك دليلًا على قوة إرادته أنه ترجم في منفاه كتاب تليماك، وهو يقع في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير، كما أنه رتب مدرسة الخرطوم أحسن ترتيب وأدارها أحسن إدارة، وتخرج منها طائفة من الشبان تولوا مهمة التدريس في المدارس التي أنشأتها الحكومة في السودان في عهد الخديوي إسماعيل. وقد امتدح رفاعة بك أخلاق السودانيين فأشار بقابليتهم «للتمدين الحقيقي لدقة أذهانهم، فإن أكثرهم قبائل عربية لا سيما الجعليين والشايقية وغيرهم، واشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية هو عن رغبة واجتهاد، ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم، حتى أن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة

العلم العدد الكثير والجم الغفير، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين (الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة، فكل إنسان من الأهالي يخصه الواحد أو الاثنان فيقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم»[1].

رجوعه من منفاه والمناصب التي تولاها

ولما توفي عباس الأول سنة (١٨٥٤م)، وتولى سعيد باشا الحكم عاد رفاعة بك من السودان، فأسندت إليه المناصب المختلفة، فجعل ناظرًا للقلم الإفرنجي بمحافظة مصر تحت رئاسة إبراهيم أدهم باشا، ثم عهد إليه سعيد باشا سنة (١٨٥٥م) وكالة المدرسة الحربية بالحوض المرصود التي كان يتولى نظارتها سليمان باشا الفرنساوي رئيس رجال الجهادية، وبعد قليل تولى نظارة المدرسة الحربية التي أنشأها سعيد باشا بالقلعة، وجمع بين هذا المنصب ونظارة قلم الترجمة، ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية ومدرسة العمارة، ونال رتبة المتمايز.

وفي سنة (١٨٦٠م) ألغيت هذه المدارس كما ألغي قلم الترجمة؛ فبقي «رفاعة بك» بغير منصب إلى عهد إسماعيل باشا، إذ هبت على العلم والتعليم نسمة الحياة، فأعيد قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية وعهد إلى رفاعة بك برياسته سنة (١٨٦٣م) وعين عضوًا في (قومسيون المدارس) الذي يشبه أن يكون مجلس المعارف الأعلى، والذي كان له فضل كبير في تنظيم التعليم على عهد إسماعيل.

وكان له فضل كبير في نشر العلوم بحثه الحكومة على طبع طائفة من أمهات الكتب العربية على نفقتها كـ«تفسير الفخر الرازي، ومعاهد التنصيص، وخزانة الأدب، والمقامات الحريرية وغير ذلك».

---

(١) «مناهج الألباب المصرية» ص٢٦٢، طبعة ثانية.

فضل رفاعة بك في نهضة المرأة

إنَّ رفاعة بك هو أول من دعا إلى نهضة المرأة وإلى تعليم البنات وتثقيفهم أسوة بالبنين، وتتجلى لك فكرته من كونه وضع كتابًا مشتركًا لتثقيف البنات والبنين على السواء، وسماه «المرشد الأمين للبنات والبنين» وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب، وضعه كما يقول في مقدمته بحيث «يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية».

ودعا في هذا الكتاب إلى وجوب تعليم البنات وإعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن في المجتمع، قال في هذا الصدد:

«ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معًا لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدبًا وعقلًا، ويجعلهن بالمعارف أهلًا، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة؛ فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء».

فالدعوة إلى نهضة المرأة في مصر ترجع كما ترى إلى رفاعة بك، ثم جاء من بعده المرحوم «قاسم بك أمين» فجددها ووسع نطاقها. وكتاب رفاعة بك طبع لأول مرة سنة (١٢٨٩هـ) -أي سنة (١٨٧٢ ميلادية)- وقد أسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة (١٨٧٣م) وهي المدرسة التي أنشأتها «جشم آفت هانم» إحدى زوجات إسماعيل بالسيوفية، على أن دعوة رفاعة بك ترجع إلى ما قبل ظهور كتابه، فإنه كما تعلم

كان عضوًا في مجلس ديوان المدارس سنة (١٨٣٧م). وقد ذكر يعقوب «أرتين باشا»[١] أن هذا المجلس قدر ما لتعليم المرأة من الفضل في النهوض بالمجتمع المصري فاقترح إدخال تعليم البنات في مصر؛ ولكن الاقتراح لم يخرج إلى حيز العمل في عهد محمد علي باشا؛ لأن المجتمع -كما يقول أرتين باشا- لم يكن يألف تعليم البنات في المدارس، فاكتفى محمد علي بمدرسة الولادة التي أنشأها لتخريج طائفة من القابلات المتعلمات.

على أن فكرة تعليم المرأة لاقت من ذلك الحين تقديرًا من الطبقات العالية، فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها في البيوت على يد أساتذة من معلمين ومعلمات، فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة نالت حظًّا وافرًا من العلم والثقافة، ومن هذه الطبقة نبغت الكاتبة الشاعرة «عائشة هانم تيمور»[٢] كريمة إسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام في عصر عباس وسعيد وإسماعيل. وقد بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة على البيوت إلى أن أنشئت مدرسة البنات بالسيوفية كما قدمنا.

فضله في نهضة القضاء والقانون

ولرفاعة بك فضل كبير في نهضة القضاء؛ فإن الحكومة حينما فكرت في إصلاح النظام القضائي على عهد إسماعيل مهدت إلى ذلك بتعريب القوانين الفرنسية المعروفة بالكود (قانون نابليون) وهي مهمة شاقة تحتاج إلى اطلاع واسع في القوانين الفرنسية وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي، وتحتاج أيضًا إلى علم غزير وصبر على العمل وإلمام تام بأسرار اللغتين الفرنسية والعربية، فلم تجد الحكومة من يضطلع بهذه المهمة سوى رفاعة بك وتلاميذه، فعرب هو وعبد الله بك السيد[٣] القانون المدني الفرنسي، واشترك معهما

(١) في كتاب «التعليم العام في مصر» (بالفرنسية) ص١٢٨.

(٢) ولدت سنة (١٨٤٠م) وتوفيت سنة (١٩٠٢م)، راجع ديوانها (حلية الطراز) وانظر ترجمتها المسهبة للآنسة (مي).

(٣) من تلاميذ مدرسة الألسن، وقد ترجمنا له فيما يلي.

عبد السلام أفندي أحمد، وأحمد أفندي حلمي. وإذا لاحظت أن هذا القانون أوسع مدى من القانون المدني المصري المقتبس منه؛ لأنه يشمل -عدا المعاملات المدنية- أحكام الأحواب الشخصية، عرفت مبلغ الجهد الذي بذله رفاعة بك ومساعدوه في تعريبه، وحسبك أنه يقع في (٢٢٨١) مادة طبعت[١] في مجلدين كبيرين؛ يقع الأول في نيف وثلاثمائة صفحة، والثاني في مائتي صفحة من الورق الكبير، وعرَّب قانون المرافعات عبد الله أبو السعود أفندي، وحسن أفندي فهمي، وعرَّب محمد قدري باشا قانون العقوبات، وصالح بك مجدي قانون تحقيق الجنايات، وهم من تلاميذ رفاعة بك. ومن هذه القوانين قد استمد الشارع المصري معظم أحكام قوانين المعاملات المدنية والمرافعات والعقوبات، تلك القوانين التي بُني على أساسها النظام القضائي الحديث، ومن ذلك يتبين فضل رفاعة بك وتلاميذه في إقامة صرح العدالة في مصر.

روضة المدارس

ومن أجل أعماله أنه تولى رئاسة تحرير مجلة «روضة المدارس» التي أنشأها العلامة علي باشا مبارك سنة (١٨٧٠م) حين كان وزيرًا للمعارف العمومية في عهد إسماعيل، وهي مجلة علمية أدبية اجتماعية، أنشأتها وزارة المعارفل كما قمنا لإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة، وتولى رئاستها رفاعة بك، ويباشر تحريرها ابنه علي بك فهمي رفاعة مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتئذ.

وكان المترجم يتولى تحرير أبواب المجلة، يعاونه في ذلك نخبة من العلماء والأدباء أمثال علي باشا مبارك، وعبد الله بك (باشا) فكري، والشيخ حسين المرصفي، والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصري القديم، وإسماعيل بك (باشا) الفلكي، ومحمد قدري بك (باشا) ومحمود باشا الفلكي، والدكتور محمد بك بدر، وأحمد بك ندا العالم النباتي الشهير، والشيخ عبد الهادي نجا الأبياري، وصالح مجدي بك، وأبو السعود أفندي محرر جريدة وادي النيل، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة

(١) سنة (١٢٨٣هـ) ١٨٦٦ ميلادية.

اللغة العربية بالمدارس التجهيزية، ورأيت فيها بعض المباحث الفقهية للشيخ حسونة النواوي، وبعض شذرات لغوية للشيخ حمزة فتح الله «من أفاضل الإسكندرية»، فكانت المجلة ميدانًا يتبارى فيه فطاحل الكتاب في ذلك العصر، وفيها المباحث الطريفة في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والرياضيات، وكانت تصدر مرتين في الشهر، وقد صدر العدد الأول منها في ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م)، واستمرت تصدر بانتظام، فأفادت الثقافة فائدة كبرى، وقد ذكرها المسيو «دور» مفتش التعليم العام على عهد إسماعيل في كتابه[١] فقال عنها: «وهذه المجلة كانت توزع مجانًا على التلاميذ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة، فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم».

وقد أصاب المسيو «دور» في قوله؛ فإن المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ، وقد رأيت فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم إسماعيل باشا صبري تتجلى فيها روح الشعر الحديث، وكان وقتئذ «الشاب النجيب إسماعيل أفندي صبري أحد تلامذة مدرسة الإدارة».

فمنها قصيدة في مدح الخديوي إسماعيل بالعدد (٢٠) من السنة الأولى[٢] قال في مطلعها:

سفَرت فلاح لنا هلالُ سعود ... ونمى الغرام بقلبي المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد من السنة الثانية[٣] يقول في مطلعها:

أغرتك الغراء أم طلعة البدر ... وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله ... وثغرك أم عقد تنظم من در

(١) «التعليم العام في مصر» ص٢٥٣.

(٢) غاية شوال سنة (١٢٨٧هـ).

(٣) ١٥ ربيع الأول سنة (١٢٨٨هـ).

وأخرى بالعدد (٢٣) من السنة الثانية[١] استهلها بقوله:

لا والهـــوى العـــذري والوجْـــد عَـــذْل عـــذولي فيـــك لا يُجْـــدِي
إني مـــع الـــصد وطـــولِ الجَفَـــا بـــاقٍ عـــلى الميثـــاقِ والعهـــدِ

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر في روضة المدارس على عهد رفاعة بك.

وفاة رفاعة بك

واستمر «رفاعة بك» يشرف على تحرير المجلة ويكتب فيها، ويتولى نظارة قلم الترجمة؛ مع ما على التأليف، إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣م (سنة ١٢٩٠) وله من العمر ٧٥ سنة، ونشر نعيه في الوقائع المصرية، وفي روضة المدارس بالعدد ٧ من السنة الرابعة[٢]، وكتب نجله علي بك فهمي رفاعة[٣] مباشر تحرير المجلة عن نعيه الكلمة الآتية:

«إنه ليحزنني أن أنقل من عدد الوقائع المصرية الأخير، ما كتبه حضرة محررها الأغر الشهير[٤] إيذانًا بوفاة والدي رفاعة بك وافع طاب ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وحيث كانت دموع الأسف على فقده شاغلة لي عن القيام بحقوقه الواجبة علي من بعده، فليس في وسعي الآن إلا الدعاء له بالرحمة والرضوان». وكانت المجلة تنشر تباعًا مؤلفات المترجم وهو كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» في تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام، فاستمرت تنشر تتمة الكتاب بعد وفاة المترجم.

---

(١) ١٥ ذي الحجة سنة (١٢٨٨هـ).
(٢) ١٥ ربيع الآخر سنة (١٢٩٠).
(٣) الذي صار علي باشا رفاعة وكيل نظارة المعارف العمومية.
(٤) الشيخ أحمد عبد الرحيم.

صفاته وأخلاقه

وصف صالح مجدي بك أستاذه رفاعة بك بقوله:

«كان قصير القامة، عظيم الهامة، واسع الجبين، متناسب الأعضاءن أسمر اللون، واسع الكون، وكان فيه دهاء وحزم، وجرأة وثبات وعزم، وإقدام ورياسة، ووقوع تام على أحوال السياسة، وتفرس في الأمور، وكان حميد السيرة، وحسن السريرة».

هذا ما كتبه أقرب الناس إليه وأعرفهم بأخلاقه وصفاته، ويلوح لنا أن من أخص صفات المترجم الصبر على المكاره، وقوة العزيمة والإباء والشهامة، أما الصبر فقد برهن عليها وقت أن أحتمل على مضض النفي في الخرطوم بشجاعة وثبات، وتتجلى لك قوة عزيمته من مثابرته في حياته على التأليف والترجمة على ما يقتضيه ذلك من الجهد والعناء، ومن كونه عرَّب كتاب من خيرة كتبه وهو في منفاه، فالنفس التي لا يحول النفي دون مثابرتها على العلم هي نفس ملؤها الإيمان ومضاء العزيمة، ورفاعة بك في عمله بمنفاه يشبه الفيلسوف الفرنسي (كوندورسيه) الذي ألف وهو مطارد كتابًا من خيرة مؤلفاته.

ومن أخص مزايا الفقيد كما قلنا: الشمم والإباء والشهامة، وقد تكون هذه المزايا مما عرقل تقدمه في مناصب الحكومة؛ إذ إنه على ما عرف به من عظيم الكفاءة لم يتجاوز «نظارة قلم الترجمة» بوزارة المعارف العمومية، و«نظارة قلم الترجمة» على ما لها من المكانة العلمية أقل مما يستحقه رفاعة بك من رفيع المناصب. وكذلك يلاحظ أنه لم ينل رتبة الباشوية مع أن أقرانه ومن هم دونه مرتبة ومنزلة نالوها، ولا يمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة؛ فإن كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير، وجدارته معترف بها من الجميع، فبقاؤه في «نظارة قلم الترجمة»، وعدم بلوغه مرتبة الوزارة وهي النهاية التي يتطلع إليها من ينتظمون في سلك المناصب الحكومية، لا بد أن يكون ذلك راجعًا إلى ما اتصف به رفاعة بك من الشمم والإباء، فإن هذه الصفات على كونها من

أسمى الفضائل ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر، ولا ترغبهم كثيرًا في أصحابها ولا تميل بهم إلى إسناد المناصب الرفيعة إليهم.

واشتهر رفاعة بك أيضًا بالكرم والجود، والزهد في الفخفخة والخيلاء، وفي ذلك يقول تلميذه صالح بك مجدي: «وكان فيه زيادة كرم وسماحة، ومزيد بلاغة وفصاحة، كثير التواضع، جم الأدب، محبًّا للخير، وكان كلما ارتقى إلى أسنى المناصب، وجلس على أسمى المراتب ازداد تواضعه للرفيع والوضيع، وتضاعف سعيه في قضاء حوائج الجميع، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها، وكان قليل النوم، كثير الانهماك في التأليف والتراجم حتى أنه ما كان يعتني بملابسه».

وطنيته

لقد أشربت نفس رفاعة بك الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان) ومن فطرته السليمة وحبه للخير، وقد استثار رحيله عن الديار تلك العاطفة الشريفة، فحركت الغربة في نفسه الحنين إلى الوطن، وجادت قريحته بأشعار تدل على وطنية عميقة؛ ولا غرو فالعواطف الإنسانية تنشأ في قرارة النفس، ثم تبدو وتظهر كلما استثارتها الحوادث والمناسبات.

وكان لإقامة رفاعة بك في باريس أثر كبير في تكوين وطنيته؛ فقد رأى في تلك الديار مظاهر إخلاص الفرنسيين لوطنهم، وشهد ثورة الشعب سنة (١٨٣٠م)، ورأى مفاداة الناس للوطن وبذلهم أرواحهم ودماءهم في سبيله، فأثرت هذه المشاهد الرائعة في نفسه الحساسة وصادفت منها موضع الإعجاب والإقناع، وغرست في قلبه الفضائل والمبادئ الوطنية التي كان يميل إليها بفطرته الطيبة، وإنك لتلمح ضوء الوطنية الساطع من قصيدة له بباريس قالها في الحنين إلى مصر وأهلها والإشادة بذكرها، قال فيها:

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمةَ مغرم ولْهان
ما خلتُه مُذْ صاح إلا أنَّه ... أضحى فقيدَ أليفه ومعاني

وكأنَّـــه يلقـــي إليَّ إشـــارة ... كيـف اصـطباري مُـذ نـأى خـلاني
مـــع أننـــي والله مـــذ فـــارقتهم ... مـا طـاب لي عيـشي وصـفو زمـاني
لكننـــي صَـــبٌّ أصـــون تَلَهُّفـــي ... حتـــى كـــأني لـــست باللهفـــان
وبباطن الأحـشاء نـار لـو بـدت ... جمراتهـــا مـــا طاقهـــا الـــثقلان
أبكـي دَمًـا مـن مهجتـي لفـراقهم ... وأود ألا تـــــشعر العينـــــان
لي مـــذهب في عـــشقهم وارَيْتـــه ... ومـــذاهب العـــشَّاق في إعـــلان
مـــاذا عـــليَّ إذا كتمـــت صـــبابتي ... حتـــى لـــو أن المـــوت في الكـــتمان

وانتقل إلى التغني بمصر وذكر محاسنها فقال:

هـــذا لعمـــري أن فيهـــا ســـادة ... قـــد زينـــوا بالحـــسن والإحـــسان
يـــا أيهـــا الخـــافي عليـــك فخارهـــا ... قاليـــك أن الـــشاهد الحـــسنان
ولـــئن حَلَفـــت بـــأن مـــصر لجنـــة ... وقطوفهـــــا للفـــــائزين دواني
والنيـــل كوثرهـــا الـــشهي شرابـــه ... لأبـــر كـــل الـــبر في أيـــماني
دار يحـــق لهـــا التفـــاخر ســـيما ... بعزيزهـــا جَـــدوى بنـــي عـــثمان

وامتدح محمد علي وإبراهيم بأشعار نهج فيها منهج الإشادة بالمفاخر القومية؛ قال:

مـــن كـــل مثـــل أميرنـــا فقرينـــه ... إســـكندر أو كـــسر نـــوشِروان
في وجهـه النـصرُ المبـينُ عـلى العـدا ... لاحـــت بـــشائره لكـــل معـــاني
في كفـــه ســـيفان ســـيف عنايـــة ... والـــشَّهمُ إبـــراهيم ســـيفٌ ثـــاني[1]

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة، فتأملْ هذه القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أنبل العواطف، وقد قدمها هو للقارئ بقوله: «وقلت أيضًا وطنية».

(١) «تخليص الإبريز» ص٤٨.

مذهب

يـــا صـــاح حـــبُّ الـــوطن حليـــــة كـــــل فطـــــن

دور

محبـــــــة الأوطـــــــان مـــــن شُـــعَب الإيـــمان
في أفخـــــــر الأديـــــان آيـــــة كـــــل مـــــؤمن

مذهب

يـــا صـــاح حـــبُّ الـــوطن حليـــــة كـــــل فطـــــن

دور

مـــــــساقط الـــــــرءوس تلـــــــذ للنفـــــــوس
تـــــذهب كـــــل بـــــوس عنـــــا وكـــــل حـــــزن

دور

ومـــــصر أبهـــى مولـــد لنـــا وأزهـــى محتـــد
ومربـــــع ومعهـــــد للـــــروح أو للبـــــدن
شُـــدَّت بهـــا العـــزائمُ نيطـــت بهـــا الـــتمائمُ
لطبعنـــــا تلائـــــم في الـــــسر أو في العلـــــن
مـــــصرُ لهـــــا أيـــــادي عُليـــــا عـــــلى الـــــبلاد
وفخرُهـــــا يُنـــــادي مـــــا المجـــــد إلا ديـــــدني
الكـــونُ مـــن مـــصر اقتـــبس نـــورًا ومـــا عنـــه احتـــبس
ومـــــا فخارهـــــا التـــــبس إلا عـــــلى وَغْـــــدٍ دَني
فخـــــرٌ قـــــديمٌ يـــــؤثر عـــــن ســـــادة ويُنـــــشر
زهـــــور مجـــــد تنثـــــر منهـــــا العقـــــول تجتبـــــى

دارُ نعيم زاهية ... ومعدن الرفاهية
آمرةٌ وناهية ... قِدْما لكل المدن
تحنو على القريب ... تحلو لدى الغريب
ترنو إلى الرقيب ... شررًا بسهم الأعين
طول المدى ولود ... وللهدى ودود
ما أمَّها جحود ... إلا انثنى بالوهن
قوة مصر القاهرة ... على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهرة ... خُصَّت بذكرٍ حسن
منازل رحيبة ... وبالمنى خَصيبة
وللهنا مجيبة ... وهي أعز موطن
علومها حقائق ... فهومها دقائق
رموزها رقائق ... تحلو لأهل الفِطَن
أما ترى الأهالي ... ترقى ذرا المعالي
هم سادةٌ موالي ... جمال وجه الزمن
أبناؤها رجال ... لم يثنهم مجال
ولا بهم أجاول ... في ليل وقع دجن
وذوقهم مطبوع ... وقدرهم مرفوع
وصيتهم مسموع ... بشرف التمدن
وجندهم صنديد ... وقلبه حديد
وخصمه طريد ... بل مدرج في كفن
كل فتى جليل ... يعشق وادي النيل
كم فيه من نزيل ... يقول مصر وطني
فإن ترم إسعادا ... يا سعد دع سعادا

obeikan.com

ولـــــذ بمـــــن أعـــــادا ... لمـــــصر فخرهـــــا الـــــسني
صـــــادق وعـــــد محـــــسن[١] ... وذكـــــره يُستحـــــسن
ولا تـــــزال الألـــــسنُ ... تـــــشدو بـــــذكرى المحـــــسن
رب عـــــلا وَحَـــــسب ... عـــــن جـــــده وعـــــن أب
فقـــــل لمـــــصر انتـــــسبي ... إلى جزيـــــل المـــــنن
أدامـــــه رب العـــــلا ... أمـــــير عـــــز وَوَلا
بجـــــاه طـــــه مـــــن عـــــلا ... بالعـــــدل جـــــور الفـــــتن[٢]

وقال يصف الجيش المصري ويشيد مفاخره:

تُـــــنَظم جنـــــدنا نَظْـــــما ... عجيبـــــا يُعجـــــز الفهـــــما
بأسْـــــدٍ تُرعـــــب الخـــــصما ... فمـــــن يقـــــوى يناضـــــلنا
رجـــــالٌ مـــــا لهـــــا عـــــدد ... كـــــمال نظامهـــــا العُـــــدد
حُلاهـــــا الـــــدرع والـــــزرد ... ســـــنان الـــــرمح عاملنـــــا
وهـــــل لخيولنـــــا شُـــــبهٌ ... كـــــرائم مـــــا بهـــــا شُـــــبه
إليهـــــا الكـــــل منتبـــــه ... وهـــــل تخفـــــى أصـــــائلنا
لنـــــا في الجـــــيش فرســـــان ... لهـــــم عنـــــد اللقـــــا شـــــان
وفي الهيجـــــاء عنـــــوان ... تهـــــيم بـــــه صـــــواهلنا
فهـــــا الميـــــدان والـــــشقرا ... شـــــقت أذن العـــــدا وقـــــرا
كأنـــــا نرســـــل الـــــصقرا ... فمـــــن يبغـــــي يراســـــلنا
مـــــدافعنا القـــــضا فيهـــــا ... وحكـــــم الحتـــــف في فيهـــــا
وأهونهـــــا وجافيهـــــا ... تجـــــود بـــــه معاملنـــــا
لنـــــا الرؤســـــاء أبطـــــال ... رجـــــال أينـــــما جـــــالوا

(١) الإشارة هنا إلى الخديوي إسماعيل.
(٢) «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك» ص١٢.

بـــصولة عـــيلم صـــالوا يفـــوق الحـــد صـــائلنا
لنـــا في المُـــدْن تحـــصينُ وتنظـــيمٌ وتحـــسينُ
وتأييـــدٌ وتمكـــين منيعـــات معاقلنـــا

ولعمري أن هذه الأبيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولا شك أن رفاعة بك قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عصر محمد علي، فهو يصور العصر الذي عاش فيه تصويرًا صحيحًا لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون صورة يخيل للقارئ أن يلمح فيها كتائب الجيش المصري تسير إلى ميادين الحرب تحف بها أعلام النصر والظفر، وتخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجابه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود بها معاملنا» تلك التي كانت قائمة في عصر محمد علي، ولو لم يشهد رفاعة بك مفاخر الجيش المصري في ذلك العصر لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذي يعيش فيه والبيئة التي تحيط به، ويصور الحياة على عهده، فكأنما هو قطعة من عصره، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ومظاهر الحالة الفكرية والخلقية.

وإنك لتلمح أيضًا عظمة الجيش المصري من قول رفاعة بك في قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يأيهـــا الجنـــودُ والقـــادة الأســـودُ
إن أمَّكـــم حـــسود يعـــود هـــامي المـــدمع
فكـــم لكـــم حُـــروب ينـــصركم تـــؤوب
لم تثـــنكم خطـــوب ولا اقتحـــام مَعْمـــع
وكـــم شـــهدتم مـــن وغـــى وكـــم هـــزمتم مَـــن بَغـــى
فمـــن تعـــدَّى وطغـــى عـــلى حمـــاكم يُـــصْرَع

وتتجلى لك روحه الوطنية في تعريبه نشيد فرنسا القومي (المارسليز)، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة بك حتى مالت نفسه إلى تعريبه وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية في حُلة عربية قشيبة، وتتبين أيضًا وطنيته من أنك تراه يكثر من عبارات الوطن وخدمة الوطن والوطنية في مؤلفاته، وهو أول من استعمل هذه الكلمات في نثره ونظمه، فتأملْ في فصول كتابه الممتع «مناهج الألباب المصرية» تجد أنَّه جعل عنوان مقدمته (في ذكر هذا الوطن وما قاله في شأن تمدينه أرباب الفطن) وتجده يقول عن سبب تأليف الكتاب أنه القيام بواجبه نحو الوطن (ص٤)، ويتكلم عن الترغيب في حب الوطن (ص٧) ويشيد بمفاخر مصر في فصول متعددة، على أنه لا يتملق الجماهير فيما يكتب بل يخلص النصح والإرشاد لبني وطنه، وبذلك برهن على وطنية صادقة خالية من شوائب التغرير والتضليل.

وأفرد في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» فصلًا بعنوان (في أبناء الوطن وما يجب عليهم)، وتكلم عن لزوم اتحاد الكلمة بين أهل الوطن؛ «لأن الله سبحانه وتعالى إنما أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم، وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم، فليكن أيضًا محلًّا للسعادة المشتركة بينهم». وقال أيضًا: «فالوطني المخلص في حب الوطن يفدي وطنه بجميع منافع نفسه، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ويفديه بروحه، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر، فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائمًا متوجهة في حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف، ولا يرتكبون شيئًا مما يخل بحقوق أوطانهم وإخوانهم فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح، كما أن الوطن نفسه يحمي عن ابنه جميع ما يضر به».

وضرب المثل بما بلغته الأمة الرومانية من العظمة حينما كان أبناؤها مستمسكين بأهداب الوطنية وقال (ص٩٥): «فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة

بحب وطنها، تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة وفسد حالها وانحل عقد نظامها».

أسلوبه

من التأمل فيما نقلناها من شعر «رفاعة بك» ونثره نستطيع أن نتبين مبلغ تقدم اللغة والأسلوب في إنشائه تقدمًا نسبيًّا عن العصر الذي سبقه، وخاصة إذا قارناه بأسلوب رجال المدرسة القديمة كالجبرتي والمهدي والخشاب وغيرهم، وهذا التقدم هو نتيجة النهضة الأدبية والعلمية التي ظهرت في عصر محمد علي باشا وأعقبت حركة الركود التي أصيبت بها العلوم والآداب في عصر المماليك[1].

فأسلوب رفاعة بك قد تحلل من قيود الركاكة القديمة، وامتاز بصحة العبارة والتأثر من الثقافة الأوربية، وهو وإن كان قد تقيد في بعض المواطن بقيود السجع المتكلف والبديعيات اللفظية إلا أنه خطا باللغة والإنشاء خطوة في طريق التقدم، وفي بعض شعره ونثره تلمح روح البلاغة ونسيم الترسل والسهل الممتنع.

فرفاعة بك هو أول من نهض بالشعر والأدب في العصر الحديث، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الأدب الجديد التي حمل لواءها البارودي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم من أعلام الأدب. نعم إننا إذا وضعنا شعره إلى جانب «شوقيات» أمير الشعراء «ووطنياته» لجاء في المرتبة الثالثة أو الرابعة من جهة الروح والأسلوب والبلاغة وابتكار المعاني؛ ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة بك نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها واضمحلالها، فله على النهضة الأدبية والعلمية فضل لا ينكر، وأغلب الظن أنه لو تفرغ للأدب والشعر دون التعريب والتأليف العلمي لبلغ في دولة الأدب شأوًا أعظم مما أدركه.

تلاميذ رفاعة بك

(١) انظر الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص٤٤ (الطبعة الأولى).

إنَّ الكلام عن رفاعة بك يستتبع الكلام عن تلاميذه الذين تخرجوا على يده في مدرسة الألسن؛ لأنهم ثمرة هذه المدرسة وأثرها الخالد، على أن من الواجب أن ننوه بأنه من يوم أن تولى منصب الترجمة في مدرسة الطب، ثم في مدرسة المدفعية بطره، صار له تلاميذ ومريدون، وممن تلقوا عنه في مدرسة الطب: الدكتور محمد علي البقلي باشا، فقد نقل عنه صالح مجدي بك[1] أنه أخذ هو وزملاؤه عن رفاعة بك بعض العلوم الأولية بمدرسة الطب بأبي زعبل سنة (١٢٤٧هـ)، وأنه شهد له شهادة أوجبت اختياره ضمن أعضاء البعثة الطبية الأولى التي أرسلت إلى فرنسا، ومعلوم أن البقلي باشا هو من أعلام الطب في عهد محمد علي وعهد إسماعيل، ولم يفتأ بعد عودته وإسناد كبرى المناصب إليه يذكر لرفاعة بك فضله عليه.

ثم جاء عهد مدرسة الألسن، فكثر عدد تلاميذه وتخرج على يديه نخبة من العلماء والأدباء ممن اضطلعوا بمهمة التعريب والترجمة والإنشاء سواء في الأدب والتأليف أو في دواوين الحكومة.

وقد ذكر السيد صالح مجدي بك أسماء النوابغ والنابهين منهم ورتبهم إلى ثلاث طبقات بحسب دخولهم المدرسة.

فذكر من **الطبقة الأولى:** عبد الله أبو السعود أفندي، وهو العالم الناثر محرر جريدة «وادي النيل» أول صحيفة سياسية حرة ظهرت في مصر على عهد إسماعيل، وأكبر رجال قلم الترجمة ثم ناظره، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم، وصاحب المباحث الشيقة في مجلة «روضة المدارس».

وخليفة أفندي محمود مترجم كتاب «إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا» وكتاب «إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان» في ثلاثة مجلدات، ومحمد أفندي مصطفى البياع الموظف بالتحريرات الإفرنجية، ومحمد أفندي عبد

(١) في رسالة «حلية الزمن» ص١١.

الرازق مترجم كتاب «غاية الأدب في خلاصة تاريخ العرب» للمسيو سديليو، وعبد الجليل بك من كبار موظفي المعية السنية، وشحاتة عيسى بك من نوابغ البعثات العلمية وناظر مدرسة أركان حرب في عهد إسماعيل، وإبراهيم بك مرزوق الشاعر الأديب، وحنفي أفندي هند من نوابغ من تخصصوا في الفنون الحربية بفرنسا، وحسن بك فهمي المصري وكيل سكك الحديد بالوجه القبلي، ثم القاضي بالمحكمة المختلطة.

وأحمد بك عبيد وكيل المحكمة التجارية بالقاهرة، ثم قاض بمحكمة الإسكندرية المختلطة، وله تراجم في القوانين العسكرية وترجم تاريخ بطرس الأكبر.

ورمضان أفندي عبد القادر مترجم بديوان البحرية، وله تراجم عسكرية عديدة، ومحمد أفندي الحلواني، وعبد الرحمن أفندي أحمد وله تراجم طبية وتاريخية لم تطبع، وحسن أفندي الجبيلي مترجم بديوان الأوقاف، وله تراجم في التاريخ وسعد أفندي مجدي، ومحمد السمسار مترجم ضبطية مصر وله تراجم غير مطبوعة، ومحمد أفندي على القوصي مأمور التذاكر الإفرنجية بالإسكندرية، وحسين أفندي على الديك مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة، وله كتاب قيم في مسك الدفاتر، والسيد عثمان أفندي الدويني قاضي محكمة الواسطة الشرعية، وحسن أفندي الشاذلي من خريجي البعثات، وأحمد أفندي عياد المترجم بإسكندرية، وعطية أفندي رضوان، ومصطفى أفندي رضوان كاتب المجلس الصحي ومدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب، ومحمد أفندي زهران مدرس بمدرسة الطب.

ومن **الطبقة الثانية** -وهي التي دخلت المدرسة سنة (١٢٥٢هـ)-: عبد الله بك السيد من نوابغ البعثات، وقد ترجمنا له فيما يلي، ومصطفى بك السراج وقد شرع في عمل قاموس فرنسي عربي لم يتمه، وصالح مجدي بك صاحب رسالة «حلية الزمن» في ترجمة رفاعة بك ومؤلف كثير من الكتب، ومحمد رشدي بك، ومحمد أفندي الطيب مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة المحاسبة والمساحة، ومحمد أفندي البحيري مدرسة اللغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية، ومحمد أفندي سليمان مدرس اللغة الإنجليزية

بالمدارس الحربية وأول من برع في الترجمة من الإنجليزية، وخورشد أفندي فهمي من خريجي البعثات، وعلي أفندي سلامة مدرس اللغة الفرنسية والجغرافية، وحسين خاكي أفندي، وعبد السلام سلمي أفندي، وعلي أفندي شكري، وقاسم أفندي محمد، ومحمد أفندي لاظ، ومصطفى أفندي صفوت، ومصطفى أفندي الكريدلي، ومحمد أفندي زيور، وأحمد أفندي صفي الدين، وعثمان فوزي باشا، والسيد عمارة أفندي، ومنصور عزمي أفندي، وبحر أفندي أحمد، وحسن أفندي قاسم، وقاسم أفندي أسعد، وإسماعيل سري أفندي، وحسن عيسوي أفندي، والدكتور مصطفى أبو زيد ومراد مختار أفندي، وحسن أفندي وفالي الخطاط الشهير.

ومن الطبقة الثالثة: محمد قدري باشا العالم المشرع الكبير صاحب الكتب الثلاثة الخالدة في جمع وترتيب أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة وصوغها في قالب القوانين الحديثة، وهي كتاب «مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان» في المعاملات الشرعية، وكتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية» وكتاب «قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف». وهذه الكتب الثلاثة هي مرجع رجال القضاء والقانون إلى اليوم وإلى ما شاء الله في المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة. وقدري باشا هو أيضًا مؤلف كتاب «تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقًا لمذهب أبي حنيفة» ووزير الحقانية ثم المعارف في عهد توفيق باشا.

ومحمد عثمان جلال بك الشاعر الناثر والأديب الكبير صاحب كتاب «العيون اليواقظ» عرَّبه عن «لافونتين» ورواية «الشيخ متلوف» ورواية «بول وفرجيني»، ومحمد شيمي بك مأمور التشهيل بالإسكندرية، ثم قاض فمستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة[1].

(١) كما جاء في الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة.

وعبد السميع أفندي عبد الرحيم، وأحمد خير الله بك المترجم بمحافظة الإسكندرية، ثم قاض بالمحكمة المختلطة، وأحمد محمود أفندي، وبحر عبد الله أفندي وعبد الله محفوظ أفندي، وحسن يوسف أفندي، وعمر صبري أفندي، وعلي رشاد أفندي، وأحمد حلمي أفندي، وعبد الله يوسف أفندي، ومتولي محمود أفندي مترجم ديوان الإسكندرية.

هذا وقد ذكر العلامة محمد قدري باشا أحد خريجي مدرسة الألسن أن تلاميذ هذه المدرسة قد عربوا نحو ألفي كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون، وأن جميع الذين نبغوا في الترجمة والتعريب على عهد محمد علي وإسماعيل هم تلاميذ رفاعة بك أو تلاميذ تلاميذه، وظاهر مما كتبه قدري باشا[1] عن هذه المدرسة أن مستوى الترجمة قد هبط في مصر بعد إقفالها، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء في التعريب، ولذلك استعانت الحكومة -كما يقول قدري باشا- بالأجانب، واقترح لهذه المناسبة إنشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغات الأوربية والشرقية، والذي نعرفه أن هذا الاقتراح لم يلق تنفيذًا وتقديرًا، فالمعروف أن مدرسة الألسن بعد أن أقفلت في عهد عباس باشا أعيدت في عهد إسماعيل سنة (١٨٦٨م) باسم مدرسة الإدارة التي كانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن، ثم عرفت بمدرسة الإدارة فقط، ثم تطورت منذ سنة (١٨٨٦م) إلى مدرسة الحقوق؛ فمدرسة الحقوق هي خليفة مدرسة الألسن، ولكن فن الترجمة وما يقتضيه من تخريج المترجمين العلماء الأكفاء لم يكن موضع العناية، لا في مدرسة الإدارة ولا في مدرسة الحقوق.

مؤلفاته

نشأ رفاعة بك في فجر النهضة العلمية والأدبية الحديثة، وكان هو أول من حمل لواءها، استوفى العلوم الأزهرية ونال حظًّا كبيرًا من العلوم العصرية الأوربية، فكان

(١) في كتابه «معلومات جغرافية» المطبوع سنة (١٨٦٩م).

منهاجه العلمي أن ينقل إلى بني وطنه علوم الإفرنج في التاريخ والجغرافية والرياضيات والقانون، وكان طليعة حركة التعريب في النهضة الحديثة.

وقد اقترن إنتاجه بنزعة وطنية قوية تلقاها كما أسلفنا من فطرته الطيبة وكرم أخلاقه وما أثارته مشاهد الثورة الفرنسة سنة (١٨٣٠م) في نفسه من عواطف وطنية صادقة، فاتجه إنتاجه إلى تهذيب النفوس وإرشادها إلى ما فيه رفعة الوطن ومجده.

وكانت له نفس شاعرة جادت بشعر تترقرق فيه معاني الوطنية، وله قلم جمع بين الأدب العربي والثقافة الأوربية، ولم يقف إنتاجه عند حدود التعريب بل ألَّف وابتكر صحائف وكتبًا ممتعة في التاريخ والأدب والتربية والأخلاق.

ويضاف إلى هذه الخصائص والمزايا إيمان ثابت وعقيدة دينية صادقة، وعزيمة ماضية، وصبر طويل، وجلد على العمل انفرد به عن النظير، وكان له أكبر الأثر في خصْب إنتاجه العلمي والأدبي، فمن هذه العناصر تتكون شخصية رفاعة بك من ناحية التأليف والتعريب، وسنذكر هنا على ضوء هذه الملاحظات مؤلفاته ومعرباته، وسنجتهد في ترتيبها بحسب ظهورها:

١- فأول تآليفه رحلته إلى فرنسا المعروفة **«بتخليص الإبريز في تلخيص باريز»** تتضمن مشاهداته في رحلته وما انطبع منها في ذهنه أثناء إقامته بباريس، وفيها وصف أحوال فرنسا ونظام الحكم فيها وأخلاق أهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم وعقائدهم وصنائعهم وأحوالهم المعاشية والسياسية والاجتماعية. وفي هذه الرحلة يتبين اتجاه المترجم إلى الأبحاث التاريخية والجغرافية، فإنه يجعلها الغاية الأولى من مشاهداته، فما من بلد مرَّ به أو أقام فيه إلا ويذكر لمعة من ماضيه وحاضره، ويتبين منها أيضًا وفرة مادته من الأدب واللغة، وميله إلى التعمق في البحث والاستقصاء، ودقة ملاحظاته ونفاذ بصيرته، وتمسكه بأهداب الدين مع سعة الفكر والرغبة في الأخذ بأسباب تقدم الأمم الأوربية، ويدلك على شغفه بالعلم إسهابه في وصف علوم فرنسا

وعلمائها ومكاتبها وجمعياتها العلمية ومدارسها ومعاهدها وثروتها العلمية من الكتب والمجلات والصحف.

وهذه الرحلة كما قدمنا هي أول رحلة مصرية بأوربا في تاريخ مصر الحديث، وقد طبعت ببولاق، وسر لها محمد علي سرورًا كبيرًا وأمر بقراءتها في قصوره وتوزيعها على الدواوين والوجوه والأعيان وقراءتها في المدارس المصرية.

٢- وعرَّب وهو في باريس كتاب **«قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر»** طبع ببولاق سنة (١٨٣٣م) بعد عودة المترجم من فرنسا.

٣- وأخذ وهو في فرنسا يعرِّب كتاب المسيو «ملتبرون» MALTBRUN في الجغرافية، فعرب الجزء الأول منه بعنوان «الجغرافية العمومية»، ثم عرَّب في مصر جزء آخر.

٤- وله في الجغرافية العمومية كتاب آخر اسمه **«الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار»**.

٥- وكتاب **«التعريبات الشاقة لمريد الجغرافية»** وهو كتاب ضخم عرَّبه عن عدة كتب فرنسية، وأضاف إليه إيضاحات واسعة، ويتناول جغرافية مصر وسائر بلدان العالم، وقد عرضه على محمد علي باشا فأمر بطبعه ونشره لتعميم نفعه، وطبع ببولاق سنة (١٨٣٨م).

٦- وله في الرياضيات والطبيعيات كتاب **«مبادئ الهندسة»** عرَّبه عن لوجندر وطبع سنة (١٨٤٣م)، وكتاب **«تعريب المعلم فرادر»** في المعادن النافعة لتدبير المعايش طبع سنة (١٨٧٣م).

٧- وعرَّب وهو بالخرطوم كتاب **«مواقع الأفلاك في وقائع تليماك»** لمؤلفه لافونتين، وقد تكلمنا عنه.

٨- وله في النحو كتاب **«جمال الأجرومية»** طبع سنة (١٨٦٣م).

٩- و«**التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية**»، جمع فيها قواعد النحو، طبعت سنة (١٨٦٨م).

١٠- وظهر له سنة (١٨٦٦م) «**تعريب القانون المدني الفرنسي**» المعروف بالكود «قانون نابليون». وهو عمل ضخم يدل على علو كعب رفاعة بك في العلم والفقه والقانون والتعريب، وقد أسلفنا الكلام عنه.

١١- وعرَّب «**قانون التجارة الفرنسي**» وظهر سنة (١٨٦٨م).

١٢- وفي سنة (١٨٦٩م) ظهر كتابه الممتع «**مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية**» وهو فيما نعلم أجل مؤلفاته وأوفاها بيانًا وأعمها نفعًا وأغزرها مادة، يشتمل على وصف مصر وبيان حضارتها وأخلاقها وعلومها وصنائعها وحكومتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويتضمن مباحث قيمة في التاريخ والجغرافية والآداب والأخلاق والمواعظ والحكم، وفيه نبذ ممتعة عن الحقوق والواجبات الوطنية.

١٣- «روضة المداس»، وهي المجلة التي تولى الإشراف على تحريرها وله فيها مباحث قيمة في الأدب والتاريخ، وقد سبق الكلام عنها.

١٤- وظهر له سنة (١٨٧٢م) كتابه القيم «**المرشد الأمين للبنات والبنين**» وهو كتاب أخلاق وتربية للمتعلمين والمتعلمات، وقد تكلمنا عنه واقتبسنا منه.

١٥- وظهر له سنة (١٨٦٥م) الجزء الأول من كتاب «**أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل**» طبع ببولاق في تاريخ مصر، ولم يصدر منه إلا الجزء الأول، وفيه تاريخ مصر القديمة وتاريخ العرب قبل الإسلام، ويقول «صالح مجدي بك»: إنه أخرج الجزء الثاني، ولكننا لم نعثر عليه، وليس في دار الكتب إلا الجزء الأول.

١٦- وله رسالة «**الكواكب النيرة في ليالي أفراح العزيز المقمرة**» في تهاني الخديوي إسماعيل بأفراح أنجاله.

١٧- آخر مؤلفاته كتاب **«نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»** وهو تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد نشر تباعًا في مجلة «روضة المدارس» بالعدد (٤) من السنة الثالثة والأعداد التالية من السنة الثالثة والرابعة والخامسة.

وعدا هذه المؤلفات قد نقح وهذب مؤلفات أخرى لتلاميذه، وذكر «صالح مجدي بك» في رسالته «حلية الزمن» مؤلفات أخرى لرفاعة بك لم تطبع ولم أعثر عليها، وهي «رسالة في الطب» و«مختصر معاهد التنصيص» و«مجموع المذاهب الأربعة» و«شرح لامية العرب» و«ترجمة مونتسكيو».

وعن «ترجمة مونتسكيو» قرأت للأستاذ الشيخ عبد الحكيم سلمان رسالة يقول فيها أنه سمع من ابن رفاعة بك أن أباه عرَّب هذا الكتاب، ورأيت في قصيدة لرفاعة بك في «مناهج الألباب المصرية» ما يؤيد ذلك؛ إذ يقول عن نفسه:

على عدد التواتر معرباتي ... تفي بفنون سلم أو جهاد
و(ملطبرون) يشهد وهو عدلٌ ... و(مونتسكيو) يقر بلا تمادي[1]

هذا ما وسعه المقام في الكلام عن مؤلفات رفاعة بك، عليه الرحمة الرضوان.

علي مبارك باشا

هو العالم الجليل، أبو التعليم في عصر إسماعيل وتوفيق، وناظر المعارف والأشغال والأوقاف، وصاحب «الخطط التوفيقية».

كانت البعثة التي التحق بها بعثة عسكرية هندسية تخصصت في العلوم الحربية والرياضيات، ولكن نبوغه اتجه إلى التربية والتعليم وإلى الجغرافية والتاريخ أكثر من اتجاهه إلى الحربية والرياضيات، ولذلك جعلناه قريبًا لرفاعة بك.

(١) «مناهج الألباب» ص٢٦٦، طبعة ثانية.

وقد عاد من البعثة بعد وفاة محمد علي باشا، ونظرًا لأن معظم سني حياته العلمية والقومية اقترنت بعصر إسماعيل وتوفيق، فقد أرجأنا ترجمته والكلام عنه إلى كتاب «عصر إسماعيل».

الهندسة والرياضيات:

مصطفى بهجت باشا

المعروف أثناء دراسته مصطفى محرمجي أفندي، هو مصطفى بهجت باشا المهندس المشهور، تلقى علومه بمدرسة قصر العيني، وكانت إعدادية للمدارس الحربية والعالية[١]، وأقام بها ثلاث سنوات، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة بالقلعة، وسافر إلى فرنسا ضمن أعضاء البعثة الأولى، وأقام بباريس عشر سنوات أتقن في خلالها العلوم الرياضية والفنون الهندسة، ولما أتم دروسه عاد إلى مصر فعين ناظرًا قصر العيني المذكورة، وبقي في هذا المنصب سنتين، ونال رتبة بكباشي، ثم عين ناظرًا لمدرسة المدفعية بطرة، ثم باشمهندس الجفالك، وعهد إليه وضع مشروع لتسهيل الملاحة في الشلالات، فقدم مشروعًا في هذا الصدد لم ينفذ، ونال رتبة أميرالاي، «ثم اشترك مع المهندس الفرنسي موجيل بك في بناء القناطر الخيرية، ثم عين مفتشًا لهندسة المنوفية والغربية، وعهد إليه عباس باشا بوضع تصميم لتجديد الجامع الأحمدي بطنطا فقام بمهمته خير قيام إلى أن تم بناؤه في عهد إسماعيل، وباشر إنشاء السكة الحديدية من بنها إلى كفر الزيات سنة (١٨٠٧م) ونال رتبة لواء، وعين مفتش هندسة الوجه القبلي مدة ثلاث سنوات ثم اعتزل العمل.

وفي عهد الخديوي إسماعيل عين مفتشًا لهندسة الوجه القبلي ثانيًا، ومن أعماله أنه خطط تصميم الترعة الإبراهيمية من أسيوط إلى جسر كوم الصعايدة الفاصل بين مديريتي المنيا وبني سويف[٢]، وعين ناظرًا لديوان المدارس (وزير المعارف العمومية)

(١) انظر: ص٣٨٦ (الطبعة السابقة).

(٢) «الخطط التوفيقية» ج١٦، ص٥٦.

من سبتمبر سنة (١٨٧٠م) إلى مايو سنة (١٨٧١م)، ثم كلف بالإقامة بالقناطر الخيرية وموالاة مظهر باشا بالرسوم والتفاصيل التي يطلبها منه أثناء إقامة الأخير بباريس مع موجيل بك والأخصائيين من كبار المهندسين الفرنسيين لإصلاح العيون التي ظهر بها خلل بقناطر فروع دمياط إلى أن أدركته الوفاة، ويعد من كبار المهندسين في تاريخ مصر الحديث.

محمد بيومي أفندي

كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة، ومن نوابغ علماء الرياضيات، ولد بمصر، وأصله من (دهشور) بمديرية الجيزة، ذهب إلى فرنسا ضمن البعثة الأولى سنة (١٨٢٦م)، وأقام بها تسع سنوات أتقن في خلالها دراسة الهندسة والعلوم الرياضية في مدرسة الهندسة، ونال إجازتها (الدبلوم) ونبغ في الرياضيات.

ولما عاد من فرنسا عين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق، وكان أستاذًا ومراجعًا لكثير من نوابغ المهندسين المصريي، أمثال سلامة باشا، ومحمود باشا الفلكي، وطائل أفندي، ودقلة أفندي، وإسماعيل باشا محمد، وعامر بك حمودة وغيرهم. وصار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة في عهد نظارة المسيو «لامبير بك»، فكان «المرجع إليه والمعول عليه» كما يقول علي باشا مبارك في ترجمته[1].

ثم انتقل من التدريس في مدرسة المهندسخانة إلى قلم الترجمة بديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) واشترك مع رفاعة بك رافع في العمل.

وله جملة مؤلفات في الهندسة والرياضيات ومنها كتاب (جر الأثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٠م)، و(ثمرة الاكتساب في علم الحساب) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٦م)،

(١) «الخطط التوفيقية» ج١١، ص٦٨.

وكتاب (الهندسة الوصفية) في مجلدين، و(جامع الثمرات في حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٧م).

وعين في عهد عباس باشا الأول مدرسًا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم، وتوفي بها في منفاه.

قال عنه علي باشا مبارك: «وكان من أعظم رجال تلك الرسالة، حسن الأخلاق، مهيبًا جليلًا، ذا رأي حسن».

محمد مظهر (باشا)

من تلاميذ البعثة الأولى، أقام بباريس عشر سنوات، وتخصص لدراسة الرياضيات والهندسة، ونبغ في العلوم الهندسية والرياضيات، وقد امتدحه المسيو «جومار» في رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه: «إن نبوغ مظهر أفندي في الرياضيات لما يسترعي النظر»[1]. ولما عاد إلى مصر عين ناظرًا لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره، ونال رتبة بكباشي، وتولى وظائف هندسية متنوعة، وهو الذي بنى فنار الإسكندرية الكبير القائم بطرف شبه جزيرة رأس التين، وهو من أجل أعماله، وكان وقتئذ مظهر أفندي، واشترك مع المسيو «موجيل بك» في بناء القناطر الخيرية، واختص بالإشراف على إنشاء قناطر فرع رشيد، ونال رتبة أميرالالي ونال في عهد إسماعيل باشا رتبة الباشوية (ميرميران)، ولما ظهر خلل في بعض عيون هذه القناطر أرسل إلى فرنسا ليجتمع بـ«موجيل بك» الذي كان مشرفًا على بنائها وبعض الأخصائيين للنظر في أمر إصلاحها.

إبراهيم رمضان بك

من كبار المهندسين، عاد قبل أن يتم دراسة بعض العلوم الرياضية، وعين في وظيفة معيد مدرس لمظهر (باشا) ناظر مدرسة المدفعية، فاستطاع استكمال ما نقصه،

(١) المجلة الأسيوية Journal Asiatique عدد أغسطس سنة (١٨٢٨م) ص١٠٥.

ثم عين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق، وله مؤلفات عديدة في الرياضيات منها «القانون الرياضي في فن تخطيط الأراضي» طبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٤م)، وكتاب «اللآلي البهية في الهندسة الوصفية» ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٥م)، «والمنحة اللدنية في الهندسة الوصفية» طبع بمطبعة المهندسخانة سنة (١٨٥٢م).

أحمد دقلة بك

هو من بلدة (بسيون) غربية، مركز كفر الزيات. نشأ في مدارس مصر، وأُرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة (١٨٢٨م)، وتخصص في العلوم الرياضية، وعاد سنة (١٨٣٥م) وعين معيدًا للأستاذ محمد بيومي أفندي كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ببولاق، ثم عين بعد ذلك مدرسًا لعلوم الجبر، وهندسة الري والقناطر والجسور، ثم وكيلًا للمدرسة مع إلقائه الدروس بها، وانتقل سنة (١٨٤٩م) إلى قلم الهندسة، وتوفي سنة (١٨٥٦م).

قال عنه علي باشا مبارك[1]: «وأكثر المهندسين الموجودين الآن (سنة ١٣٠٥هـ) تلقوا عنه، وكان حسن الإلقاء، يجتهد في التعليم، ويحث على الفهم، وكان من أعظم المهندسين. وله من المؤلفات كتاب «رضاب الغانيات في حساب المثلثات» ترجمه عن الفرنسية، وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٣م).

أحمد طائل أفندي

هو من بلدة «بلتان» قليوبية، مركز طوخ، نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر، والتحق بالبعثة بمدارس فرنسا الهندسية، وعاد منها سنة (١٨٣٥م)، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدًا لدروس للأستاذ محمد بيومي أفندي، ثم عين بعد ذلك مدرسًا للعلوم الميكانيكية والجبر، ثم مهندسًا للركاب العالي سنة (١٨٤٢م)، ثم

(١) «الخطط التوفيقية» ج٩، ص٦٥.

أرسل للخرطوم مدرسًا بالمدرسة الابتدائية التي أنشأها عباس باشا الأول، فذهب إليها صحبة رفاعة بك رافع والأستاذ بيومي أفندي، وعاد من منفاه في أول حكم سعيد باشا مصابًا بالحمى، وتوفي بعد وصوله إلى بولاق بليلتين، قال عنه علي باشا مبارك[1]: «وكان قصير القامة، صغير الجسم، كثير الفهم، لا يبالي بأكثر الأمور، وله جرأة على الأمراء وإقدام، وكان محبًّا للتلامذة يرغب في تعليمهم، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم».

أحمد فايد (باشا)

نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر، وأقام بفرنسا عشر سنوات يتلقى العلوم بمدارسها، وعين بعد عودته مدرسًا للرياضيات بمدرسة المهندسخانة، وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلًا لها، وتخرج على يده كثير من المهندسين المشار إليهم بالبنان، وله مؤلفات في الهندسة والري، منها كتاب «الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية» ترجمه عن الفرنسية، وطبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤١م)، و«تحرك السوائل» طبع سنة (١٨٤٧م)، و«الدرة السنية في الحسابات الهندسية» طبع سنة (١٨٥٢م).

محمود باشا الفلكي

لم يكن محمود باشا الفلكي من تلاميذ بعثات محمد علي؛ لأنه التحق بالبعثة في عهد عباس؛ لكنه تعلم علومه الأولى في مدارس محمد علي، وهو من زملاء العلماء المتقدم ذكرهم، على أن حياته العامة ترتبط بعصر إسماعيل، لذلك ترجمنا له في كتاب «عصر إسماعيل».

(١) «الخطط التوفيقية» ج٩، ص٧٨.

أحمد بك السبكي

من أعضاء البعثة الخامسة، وهو من (سبك الثلاث) منوفية. ترجم له العلامة علي باشا مبارك لمناسبة الكلام عن سبك الثلاث[١] فقال: «ومن هذه البلدة أيضًا الأمير أحمد بك السبكي ابن أحمد بن سليمان عجيلة، من عائلة تسمى العجايلة يقال إن أصلهم من بيت عجيل من مديرية الشرقية». وذكر عنه أنه دخل صغيرًا مكتب (مدرسة) منوف سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م) «ضمن أولاد المكاتب الذين جلبهم العزيز المرحوم محمد علي باشا من البلاد»، ثم نقل إلى مدرسة قصر العيني، ثم إلى مدرسة أبي زعبل، ثم إلى المهندسخانة ببولاق، ثم سافر ضمن بعثة الأنجال إلى فرنسا، فأقام بباريس سنتين، ثم دخل مدرسة الفرسان الحربية، وبعد تمام تعليمه حضر إلى مصر في عهد إبراهيم باشا فجعل ضابطًا من ضباط الفرسان بالألاي الأول برتبة ملازم أول سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م)، وجُعل مدرسًا في ذلك الألاي، وبعد سبع سنوات خرج من خدمة الألاي وألحق بالمهندسين الذين عهد إليهم رسم خريطة قنال السويس برتبة يوزباشي في عهد سعيد باشا، وبعد انتهاء هذه المهمة عهد إليه معاونة العالم الكبير محمود باشا الفلكي في رسم خريطة الوجه البحري، وبعد انتهائها أنعم عليه برتبة صاغقول أغاسي، ونال رتبة البكباشي في أوائل عهد إسماعيل، وألحق بديوان (وزارة) الأشغال، ونال رتبة قائمقام، وندب لمهمات عديدة، وصحب محمود باشا الفلكي إلى دنقلة لرصد الكسوف الكلي للشمس سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م)، وسافر إلى سواكن بمعية إسماعيل باشا اللفكي لاكتشاف موضع يوافق إنشاء سكة الحديد من سواكن إلى شندي بالسودان، فأقام في هذه المهمة نحو أربعة أشهر في عمل الرسوم، ثم اتضح عدم إمكان إنفاذ المشروع وقتئذ؛ لما كان في الطريق من الأودية والعقبات، وعهد إليه مرة أخرى في رسم خريطة الوجه القبلي من أسيوط إلى القاهرة، فاستوفاها رسمًا وميزانية، وأيضًا في وضع تصميم ترعة تخرج من القناطر الخيرية إلى

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٢، ص٩.

بحيرة مريوط، فوضع لها الرسوم والميزانيات، وبالجملة كان من كبار المهندسين الذين انتفعت البلاد من خدماتهم.

حسن بك نور الدين

هو من (سنهور) غربية، ومن زملاء علي باشا مبارك في بعثة الأنجال، ترجم له في كلامه عن سنهور[1] فقال عنه ما خلاصته أن مولده سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢٢م) وتلقى التعليم الأولي في مكتب (كفر مجر) القريبة من سنهور، وانتقل بعد سنتين إلى مدرسة طنطا فأقام بها سنة، ثم التحق بمدرسة قصر العيني بمصر، وانتقل منها إلى مدرسة أبي زعبل، ثم إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق، وكان في فرقة علي باشا مبارك فأقام بالمدرسة خمس سنوات أتم فيها دراسة العلوم الرياضية النظرية والعملية، وكان من ضمن السبعة الأوائل من الفرقة الأولى الذين اختارتهم الحكومة في بعثة الأنجال لإتقان العلوم الحربية، فسافر ضمن هذه البعثة، ودخل مدرسة المهندسخانة بباريس، واستمر بها سنتين، ثم انتقل إلى مدرسة القناطر والجسور فأقام بها أربع سنوات، وكان يجمع بين العلم والعمل، فيقضي كل سنة ثمانية أشهر في تلقي العلوم وأربعة أشهر في مشاهدة الأعمال الهندسية في المدن والأقاليم والثغور كالقناطر والموانئ والسكك الحديدية والمصانع.

وعاد إلى مصر سنة (١٨٥٤م) وتقلد المناصب الفنية، وكان من نوابغ المهندسين، وله أعمال وخدمات جليلة في السكك الحديدية والمالية، ومنها أنه رسم تصميم سكة الفيوم الحديدية، وأنشأ سكة حديد دسوق، وخط الصالحية، وعين باشمنهدس سكة حديد القاهرة، وتنقل في مناصب عدة، قال عنه علي باشا مبارك: إنه «إنسان حسن السير والسيرة، دين صالح، محب للصلحاء والعلماء».

(١) «الخطط التوفيقية» جزء١٢، ص٦٠.

الطب والجراحة:

محمد علي البقلي باشا

ناظر مدرسة الطب، وكبير أطباء وجراحي مستشفى قصر العيني، وهو من (زاوية البقلي) مركز منوف، ومن أنبغ نوابغ البعثات العلمية، ترجم له العلامة علي باشا مبارك فوصفه «بالعالم النحرير، والعلم الشهير، السيد محمد علي باشا الحكيم». ولد في زاوية البقلي سنة (١٨١٥م)، وقد اشتهرت هذه البلدة بمن نبغ من أبنائها؛ قال علي باشا مبارك عنها[١]: «وهذه القرية وإن كانت صغيرة لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثرة من ترقي منها في الوظائف السنية والخدمات الميرية من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة».

ترعرع المترجم فأدخله أهله مكتبًا ببلده، فتعلم الكتابة وشيئًا من القرآن الحكيم، وفي التاسعة من عمره أدخله أحمد أفندي البقلي مكتب أبي زعبل فلبث فيه ثلاث سنين وأتم قراءة القرآن، ثم دخل مدرسة أبي زعبل التجهيزية، فمكث بها أيضًا ثلاث سنين، وبدت عليه مخايل الذكاء، واشتهر بحسن السير، فكان أول فرقته، ثم دخل مدرسة الطب، وكان ناظرها الدكتور كلوت بك، فاشتهر بالنبوغ وتوقد القريحة، وبذل جهده في الدرس والتحصيل ففاق أقرانه، ولما أتم دراسة الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التي أرسلت لفرنسا للتبحر في العلوم الطبية، فالتحق بمدرسة الطب بباريس «وبذل غاية جهده في تحصيل العلوم الطبية والجراحية، وشهد له جميع أساتذتها بالتفوق على من معه مع كونه أصغرهم سنًّا».

وكان بارًّا بأهله، ذكر عنه علي باشا مبارك أن مرتبه حين ألحق بالبعثة كان مائة وخمسين قرشًا، فترك لوالدته خمسين، وأبقى لنفسه المائة، وأتم مع زملائه امتحانات الطب بمدرسة باريس، ولم يبق عليه سوى تأليف الرسالة الطبية التي ينال بها دبلوم

(١) «الخطط التوفيقية» ج١١، ص٨٤.

الطب، فألف رسالة طبية في الرمد الصديدي المصري، وحصل على الدبلوم، وعاد إلى مصر سنة (١٨٣٨م)، فعين مدرسًا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب وكبيرًا لجراحي المستشفى، ونال رتبة صاغقول أغاسي، ثم بعد قليل أعطي رتبة بكباشي. وفي عهد عباس باشا الأول انتقل من منصبه بالقصر العيني، وعين طبيبًا في أحد أقسام القاهرة وهو قسم قيسون؛ وذلك «لمنافسة حصلت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الأوربيين»، ولما ناله من الشهرة صار مقصد المرضى من جميع الجهات، وقل الوارد على مستشفى قصر العيني، وظلت شهرته في اتساع، ومكث كذلك نحو خمس سنين، ثم نال رتبة قائمقام وعين كبيرًا لأطباء الألايات السعيدية، ثم عاد لمنصب كبير جراحي مستشفى قصر العيني، وعين وكيلًا للمدرسة ومدرس الجراحة بها، ثم أنعم عليه برتبة أميرالاي، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص، مع إبقاء وظائفه وأخذه في معيته، وأنعم عليه برتبة المتمايز واصطحبه في رحلته بأوربا.

وفي عهد الخديوي إسماعيل باشا عين ناظرًا لمدرسة الطب ورئيسًا لمستشفى قصر العيني، ورغب إليه الخديوي أن يؤلف الكتب لإحياء العلوم الطبية، ونال الرتبة الأولى، ثم عين رئيسًا لأطباء الحملة الحربية التي جردها الخديوي إسماعيل على الحبشة بقيادة السردار راتب باشا، فأدى خدمات جليلة لجنود الحملة، واستشهد هناك سنة (١٨٧٦م)، فكانت وفاته في ساحة الواجب والجهاد.

ومما يذكر له أنه بذل جهدًا كبيرًا في مكافحة الكوليرا التي انتابت مصر سنة (١٨٦٥م)، وكافأته الحكومة على جهوده بالنيشان المجيدي من الرتبة الثالثة.

وأظهر ناحية في شهرته أنه كان نابغة الجراحين، وكان بارًّا بالناس، محبًّا للخير يعطف على الفقراء من المرضى، فلا يطلب منهم أجرًا، وله في الطب تآليف قيمة، كتاب في الجراحة الصغرى سماه «روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى» طبع سنة (١٨٤٣م)، وكتاب «غرر النجاح في أعمال الجراح» في جزأين، طبع سنة (١٨٤٦م)، و«نشر الكلام في جراحة الأقسام» لم يطبع، وكتاب في العمليات

الجراحية الكبرى في مجلدين سماه «غاية الفلاح في أعمال الجراح» طبع سنة (١٨٦٥م)، وأصدر سنة (١٨٦٥م) مجلة «اليعسوب» بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم دسوقي بك، وهي أول مجلة طبية عربية ظهرت في مصر.

إبراهيم بك النبراوي

هو من (نبروه) بمديرية الغربية، تلقى التعليم الأولي في مكتب البلد، ثم ترك المكتب وتعلق بالبيع والشراء والتجارة، وسافر إلى مصر للتجارة فخسر فيها فدخل الأزهر، واشتغل بطلب العلم إلى أن اختارت الحكومة من الأزهر بعض تلاميذه لإلحاقهم بمدرسة الطب بأبي زعبل، فرغب المترجم الالتحاق بها فانتظم في سلكها ونال بها رتبة ملازم، ونبغ فيها، فكان أحد أعضاء البعثة الطبية الذين اختارهم الدكتور كلوت بك لإتمام علومهم في فرنسا، فسافر ضمنها وأقام بفرنسا (١٣) سنة وأتم علومه وعاد سنة (١٨٣٣م)، وارتقى إلى رتبة يوزباشي، وعين أستاذًا بمدرسة الطب، وكانت قد انتقلت إلى (قصر العيني) وبعد قليل نال رتبة صاغ قول أغاسي، وذاع صيته، واشتهر كفاءته، فاختاره محمد علي طبيبًا له، وقربه وأغدق عليه من المنح والإنعامات، ونال رتبة أميرالاي، وكان مقصد الأمراء والبيوت الكبيرة في العلاج، واصطحبه محمد علي في رحلته بأوربا سنة (١٨٤٨م)، واختاره عباس باشا الأول أيضًا طبيبًا له بعد ولايته الحكم، واصطحبته والدة عباس باشا في رحلتها إلى الحجاز، ولما رجع المترجم من الحج وجد زوجته الإفرنجية التي تزوج بها أثناء دراسته بأوربا قد توفيت، فتزوج بإشراقة من جواري والدة عباس باشا أنعمت بها عليه، وما زال في عز ونعمة إلى أن توفي سنة (١٨٦٢م). وقد وصفه العلامة علي باشا مبارك -الذي نقلنا عنه معظم هذه الترجمة- بأنه كان إنسانًا كريم الشيم، رفيع الهمَّة، يغلب عليه الفرح والانبساط، فكنت تراه دائمًا مستصحبًا للمغاني وآلات الطرب، قال: وهو أنجب من اشتهر في الجراحة، ذو إقدام على مالم يقدم عليه غيره؛ فمن ذلك أنه كان

يشق على أُدْرَة الرجل ويعمل فيها العمليات المنتجة للصحة، ولم يسبقه في ذلك غيره[١].

وله من المؤلفات «الأربطة الجراحية» ترجمه عن الفرنسية، وطبع سنة (١٨٣٨م)، ونبذة في «الفلسفة الطبيعية» تأليف «كلوت بك» ترجمها إلى العربية، ونبذة في «أصول الطبيعة والتشريح العام» لـ«كلوت بك» أيضًا ترجمها إلى العربية.

أحمد حسن الرشيدي بك

هو من نوابغ خريجي مدرسة الطب المصرية والبعثات، ومن أركان النهضة الطبية العلمية بتآليفه وتراجمه، وأكثر علماء الطب تأليفًا وترجمة وتعريبًا، نشأ في الأزهر، وانتقل منه إلى مدرسة الطب في أبي زعبل، وأتم العلوم الطبية في فرنسا ضمن أعضاء البعثة الرابعة، وبعد عودته عين أستاذًا في مدرسة الطب، وأخذ في الترجمة والتأليف بهمة لا تعرف الكلل، وكفاءة ومقدرة ومتانة في اللغة فاق فيها زملاءه وأنداده، وقد بلغت مؤلفاته تسعة في عهد محمد علي، ثم ركدت حركة العلم والتأليف في عصر عباس وسعيد، فلما صارت الأريكة الخديوية إلى الخديوي إسماعيل قربه إليه وحثه على العمل، فألف كتاب «عمدة المحتاج لعلمي الأدوية والعلاج». وتوفي سنة (١٨٦٦م)، وهاك مؤلفاته:

١- **«رسالة في تطعيم الجدري»** ترجمها عن «كلوت بك» وطبعت سنة (١٨٣٦م).

٢- **كتاب «الدراسة الأولية في الجغرافية الطبيعية»**، طبع سنة (١٨٣٨م).

٣- **«ضياء النيرين في مداواة العينين»** معرَّب عن الفرنسية، طبع سنة (١٨٤٠م).

٤- «طالع السعادة والإقبال في علم الولادة وأمراض النساء والأطفال» ترجمه علي هيبة أفندي الحكيم، وصححه الرشيدي في جزأين، طبع سنة (١٨٤٢م).

---

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٧، ص٣.

٥- نبذة في «**تطعيم الجدري**» طبع سنة (١٨٤٣م).

٦- «**بهجة الرؤساء في أمراض النساء**» طبع سنة (١٨٤٥م).

٧- «**نزهة الإقبال في مداواة الأطفال**» طبع سنة (١٨٤٥م).

٨- «**الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية**» في مجلدين، طبع سنة (١٨٤٧م).

٩- «**نخبة الأماثل في علاج تشوهات المفاصل**».

١٠- «**عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج**»، وهو أهم كتبه، وهو دائرة معارف طبية في أربعة مجلدات كبيرة، طبع سنة (١٨٦٧م) بعد وفاة المؤلف.

محمد الشافعي بك

من أعضاء البعثة الرابعة، ولما عاد من فرنسا عين أستاذًا بمدرسة الطب، ثم ناظرًا عليها، وهو أستاذ سالم باشا الطبيب المشهور، وله في التأليف والترجمة كتاب:

١- «**أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض**» طبع سنة (١٨٤٣م) في جزأين.

٢- «**الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال**» لمؤلفه «كلوت بك» عرَّبه المترجم، وطبع بمطبعة بولاق (١٨٤٤م).

٣- «**السراج الوهاج في التشخيص والعلاج**» طبع سنة (١٨٦٤م) في أربعة مجلدات.

محمد الشباسي بك

من أعضاء البعثة الرابعة، أقام بفرنسا (١٣) سنة لإتمام العلوم الطبية، ولما عاد إلى مصر عين أستاذًا للتشريح بمدرسة الطب.

وله في التأليف كتاب «التنوير في قواعد التحضير» ألَّفه بإرشاد الدكتور «كلوت بك»، وطبع سنة (١٨٤٧م)، وعرب كتب «التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد» طبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٥م).

مصطفى بك السبكي

من أعضاء البعثة الرابعة، ومدرس الرمد بمدرسة الطب، ومن مشاهير أطباء العيون، توفي سنة (١٨٤٤م).

عيسوي أفندي النحراوي

من أعضاء البعثة الرابعة، أستاذ علم التشريح بمدرسة الطب، ومترجم كتاب «التشريح العام» المطبوع بمطبعة بولاق سنة (١٨٣٥م).

حسين غانم الرشيدي أفندي

من أعضاء البعثة الرابعة، كان قبل سفره إلى فرنسا من مصححي الكتب الطبية بمدرسة الطب، سافر إلى فرنسا سنة (١٨٣٢م) وأقام بها (١٣) سنة، وأتقن علم الصيدلة، وبعد عودته عين أستاذًا لهذا الفن بمدرسة الطب، ثم عين مديرًا لمعمل الصيدلة في عهد محمد علي، وهو مؤلف «الدر الثمين في فن الأقرباذين» طبع بمطبعة بولاق سنة (١٨٤٨م)، وقد أشاد «كلوت بك» بذكره هو والسيد أحمد حسن الرشيدي وعدهما من نوابغ البعثات المصرية.

محمد عبد الفتاح

من خريجي البعثة الثالثة، ترجم كتبًا عدة في الطب والتاريخ الطبيعي؛ منها كتاب:

١- **«نزهة المحافل في معرفة المفاصل»**، طبع سنة (١٨٤١م).

٢- **«مشكاة اللائذين في علم الأقرباذين»** طبع سنة (١٨٤٤م).

٣- «**البهجة السنية في أعمار الحيوانات الأهلية**» طبع سنة (١٨٤٤م).

٤- «**المنحة لطالب قانون الصحة**» طبع سنة (١٨٤٥م).

علي هيبة

من خريجي البعثة الأولى، ومن كبار الأطباء. ترجم كتاب «طالع السعادة في فن الولادة» الذي صححه أحمد حسن الرشيدي، وكتاب «إسعاف المرضى في علم منافع الأعضا» ترجمه عن الفرنسية، وطبع ببولاق سنة (١٨٣٦م).

حسين عوف باشا وإبراهيم دسوقي بك
(طبيبا العيون)

كلاهما من تلاميذ البعثة السادسة، وكلاهما أتم دراسة الطب والجراحة بمدرسة قصر العيني، وبلغ رتبة يوزباشي، ثم أرسل إلى النمسا سنة (١٨٤٥م) للتخصص في الرمد على الدكتور «بجر» الاختصاصي في الرمد بمدينة (بج)، ونال كلاهما شهادة التخصص من الأستاذ المذكور، ولما عادا إلى مصر أمر محمد علي باشا بإقامتهما بالقاهرة للانتفاع بفنهما وعلاجهما أمراض العيون، واختارت الحكومة بعض التلاميذ للتخرج على يدهما والتخصص في الرمد لإرسالهم إلى البنادر المهمة للقيام بمهام أطباء الرمد.

وأنعم على كل منهما برتبة صاغقول أغاسي، وقد وصل حسين عوف إلى رتبة الباشوية، وكان من كبار أساتذة الطب، وتخرج على يده كثير من الأطباء، وكان إبراهيم دسوقي بك أيضًا من أساتذة المدرسة المذكورة.

مصطفى الواطي بك

من تلاميذ البعثة الخامسة، أتم الطب في مدرسة الطب المصرية، وأرسل إلى باريس وأقام بها سنتين ونصفًا للتخصص في صناعة طب الأسنان، وترأس في مصر قسم ترجمة الطبيات بفروعها في قلم الترجمة، ثم صار وكيلًا لمدرسة الطب.

عثمان أفندي إبراهيم

من تلاميذ البعثة الخامسة، وكان زميلًا لمصطفى الواطي، ولما عاد الاثنان أصدر محمد علي باشا أمره بإبقائهما بالمستشفى لتدريس هذا الفن للتلاميذ ومعالجة المرضى.

رجال الدولة والسياسة:

الأمير إسماعيل
(الخديوي إسماعيل باشا)

كان من تلاميذ البعثة الخامسة، ودرس الفنون الحربية بفرنسا، وتولى أريكة مصر بعد وفاة سعيد باشا، وقد خصصنا للكلام عنه كتاب «عصر إسماعيل».

محمد شريف باشا

من تلاميذ البعثة الخامسة، وهو الوزير الكبير شريف باشا مؤسس النظام الدستوري في مصر، وصاحب الموقف المشرف في الدفاع عن وحدة مصر والسودان، والمستقيل من رئاسة الوزارة اعتراضًا على سلخ السودان عن مصر، والقائل كلمته الخالدة: «إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا». ولما كانت حياته العامة قد اقترنت بعهد إسماعيل وتوفيق فقد ترجمنا له في كتاب «عصر إسماعيل».

الحربية والإدارة العسكرية:

مصطفى مختار بك
مدير ديوان المدارس

من تلاميذ البعثة الأولى، وكان من قبل موظفًا بديوان محمد علي، وتخصص لدراسة الفنون الحربية، وكان هو وعبدي شكري (باشا) وحسن (باشا) الإسكندراني بمثابة الرؤساء الثلاثة للبعثة الأولى، وقد خصهم رفاعة بك -الذي زاملهم في

الدراسة- بالذكر فقال عنهم[١]: «قد بعث صاحب السعادة (محمد علي باشا) في السفر إلى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من أكابر ديوانه السعيد، وجعلهم أرباب نظر عام على من عداهم وهم على هذا الترتيب، فأولهم صاحب الرأي التام والمعرفة والأحكام، حائز فضيلتي السيف والقلم، والعارف برسوم العرب والعجم حضرة عبدي أفندي المهر دار، والثاني صاحب الرأي السديد، والطالع السعيد، من خلغ في حب المعالي العذار، حضرة مصطفى مختار أفندي الدويدار، والثالث الحاوي بين العلم والعمل، واليراع والأسل، حضرة الحاج حسن الإسكندراني».

وقد عاد المترجم من فرنسا بعد أن أتم دراسته سنة (١٨٣٢م) ونال رتبة بكباشي ولقب بك، واشترك في الحرب السورية الأولى، وكان فيها من خاصة أركان حرب إبراهيم باشا وياورًا له[٢]، ثم عين بعد ذلك رئيس مجلس شورى المدارس، ثم مدير «ديوان المدارس»، فهو أول وزير للمعارف في تاريخ مصر الحديث، وعين رئيسًا للمجلس العالي في عهد محمد علي باشا خلفًا لعبدي شكري باشا، وكانت الأعمال الهندسية محالة إلى عهدته، فكان وزيرًا للمعارف والأشغال، وتوفي سنة (١٨٣٨م).

أمين بك الكرجي

من تلاميذ البعثة العلمية الأولى، أتقن في فرنسا فنَّ صب المدافع وصنع الأسلحة، وعين بعد عودته بالطوبخانة المصرية «معمل الأسلحة والمدافع» برتبة يوزباشي، وأخذ يتدرج إلى أن صار ناظر الكهرجالات (معامل البارود) في عهد محمد علي، ونال رتبة أميرالاي، وقد ذكره «كلوت بك» في كتابه، وعده في مقدمة نوابغ البعثات المصرية ويسميه (أمين بك مدير فابريقة ملح البارود).

(١) في كتابه «تخليص الإبريز» ص٢٠.

(٢) رسائل البارون (بو الكونت) ص٢٤٤.

أحمد بك

من تلاميذ البعثة الأولى، تخصص في فرنسا لدراسة الفنون الحربية، وقضى في دراسته ست سنوات، واشترك في الحرب السورية الأولى، وكان من أركان حرب إبراهيم باشا، وقد عهد إليه بعد صلح كوتاهية بتحصين مضايق جبل طوروس التي انتهت إليها حدود مصر الشمالية، فاضطلع بهذه المهمة وقام بها خير قيام، واشترك معه فيها الكولونيل سليم بك، ولازم إبراهيم باشا في واقعة نصيبين.

علي باشا إبراهيم

ناظر المعارف العمومية في عهد توفيق باشا، تعلم بمدارس مصر، وسافر إلى فرنسا سنة (١٢٦٠هـ) ضمن البعثة الخامسة، وأقام بباريس سنتين، ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية بمدينة (متس) METZ وأقام بها سنتين ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى، وألحق بالألايات الفرنسية، وفي سنة (١٢٦٦هـ) أمر عباس باشا الأول بعودة جميع طلبة البعثة، فعاد المترجم إلى مصر، ونال رتبة يوزباشي، وعين مدرسًا لإلهامي باشا ابن عباس باشا[١]، ثم ألحق بأركان حرب سليمان باشا الفرنساوي (الكولونيل سيف) وصار ناظرًا للمدرسة التجهيزية سنة (١٨٦٤م)، ثم ناظرًا لدروس المدارس الحربية، ثم مستشارًا بمحكمة الاستئناف المختلطة، ثم ناظرًا للمعارف العمومية.

حماد عبد العاطي (باشا)

أصله من (دير الجنادلة) مركز أبو تيج، يسميه علي باشا مبارك «الأمير الجليل حماد بك ابن عبد العاطي، كان له جد شهير يسمى عيسى له زاوية هناك تسمى زاوية عيسى»[٢].

(١) «الخطط التوفيقية» ج٩، ص٤٥.

(٢) «الخطط التوفيقية» ج٩، ص٧١.

نشأ نشأته العلمية الأولى في مدرسة أبو تيج سنة (١٢٤٩هـ)، ثم انتقل منها إلى مدرسة قصر العيني، ثم مدرسة أبي زعبل، ثم إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق، ثم انتخب ضمن تلاميذ البعثة الخامسة لتعلم الفنون الحربية بفرنسا، فدخل مدرسة المدفعية بمدينة (متس) ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى، وخدم في الألايات الطوبجية الفرنسية نحو سنة، ثم عاد إلى مصر، وتدرج في وظائف عدة؛ منها التدريس بالمدارس الحربية، ونظارة قلم الهندسة بديوان الأشغال، ونال رتبة البكباشي، ثم الميرالاي، وصار مستشارًا بمحكمة الاستئناف المختلطة[1] سنة (١٨٧٩م).

الملاحة والعلوم البحرية وبناء السفن:

الأميرال عثمان نور الدين باشا

هو من أول من أرسلهم محمد علي إلى أوربا لتلقي العلوم، وقد ترجمنا له في الفصل الحادي عشر (ص٤٥١ بالطبعة السابقة).

الأميرال حسن باشا الإسكندراني

من تلاميذ البعثة الأولى، تخصص لدراسة فنون الملاحة والهندسة البحرية في فرنسا، وكان يبلغ من العمر حين سفره بهذه البعثة (٣٧) سنة، وعاد من فرنسا سنة (١٨٣١م)، فالتحق بالأسطول المصري، وبرهن على كفاءته ومهارته، وارتقى في المناصب إلى أن صار رئيس ترسانة الإسكندرية وناظرًا للبحرية، ونال رتبة الباشوية.

وقد تولى قيادة الأسطول المصري الذي حارب الروسيا في حرب القرم سنة (١٨٥٣م) في عهد عباس باشا الأول وسعيد باشا، وكان هذا الأسطول مؤلفًا من (١٢) سفينة حربية، وأظهر شجاعة ودراية، وغرق في تلك الحرب سنة (١٨٥٥م) مع السفينة (مفتاح جهاد) التي كانت تقله، وغرق معه معظم جنود وضباط السفينة،

(١) كما ذكر في الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة.

وكانت هذه آخر الحملات التي قامت بها السفن الحربية من الأسطول الضخم الذي أنشأه محمد علي الكبير.

محمد شنان بك

من تلاميذ البعثة الأولى، تخصص لدراسة العلوم والفنون البحرية، وبعد عودته خدم الأسطول، وتولى قيادة السفينة الحربية (البحيرة) من سفن الأسطول المصري الذي كان يقوده الأميرال حسن باشا الإسكندراني في حرب القرم كما تقدم ذكره، وغرق مع السفينة المذكورة.

محمود نامي بك

من تلاميذ البعثة الأولى وزميل حسن (باشا) الإسكندراني وشنان (بك) في البعثة المذكورة، وبعد عودته عينه محمد علي محافظًا لبيروت أثناء الفتح المصري، فبقي بهذا المنصب سبع سنوات من سنة (١٨٣٣م) إلى سنة (١٨٤٠م)، وسار سيرة عدل وإصلاح مما حببه إلى نفوس الأهلين، وهو جد الداماد أحمد نامي بك رئيس حكومة سورية سابقًا.

محمد بك راغب

من تلاميذ البعثة الثالثة، تخصص في إنجلترا لتعلم فن بناء السفن، وعين مع حسن بك السعران لرئاسة قسم الهندسة وإنشاء السفن في ترسانة الإسكندرية وتوليا العمل الذي كان يقوم به المسيو «سريزي بك» في الترسانة.

عبد الحميد الديار بكر لي ويوسف أكاه أفندي وعبد الكريم أفندي.

تعلموا الفنون البحرية في إنجلترا وصاروا من أمهر ضباط الأسطول المصري.

الحقوق والعلوم السياسية:

عبدي شكري باشا

من تلاميذ البعثة الأولى، وهو ابن حبيب أفندي كتخدا محمد علي، وقد التحق بالبعثة وعمره (٢٩) سنة، وتخصص لدراسة الحقوق والإدارة الملكية، وعاد من فرنسا سنة (١٨٣٠م)، ثم عين مأمورًا للبعثة بفرنسا وترقى في المناصب إلى أن صار رئيسًا للمجلس العالي في عهد محمد ونال رتبة الباشوية، وعين مديرًا لديوان المدارس -أي وزيرًا للمعارف العمومية- في عهد عباس باشا الأول، وقد ذكره الدكتور «كلوت بك» ضمن نوابغ خريجي البعثات.

أرتين بك

من تلاميذ البعثة الأولى، عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسة الحقوق والإدارة الملكية، وعين وكيلًا لمدرسة المهندسخانة ببولاق، ثم سكرتيرًا أول وترجمانًا لمحمد علي باشا، وهو الذي تولى إبلاغ وكلاء الدول بمصر (إبريل سنة ١٨٣٩م) بلاغ محمد علي قبل الحرب السورية الثانية أنه كتب إلى إبراهيم باشا ألا يخوض غمار الحرب إلا إذا تحقق من زحف الجيش العثماني، وقد صار وزيرًا للتجارة والخارجية خلفًا لـ«بوغوص بك»، ويعده الدكتور «كلوت بك» من نوابغ البعثات المصرية، وهو والد «يعقوب أرتين باشا» وكيل نظارة المعارف العمومية سابقًا.

أسطفان بك

من تلاميذ البعثة الأولى، وقد عين مديرًا للمدرسة المصرية التي أنشئت للبعثة العلمية الخامسة بباريس، ويعده الدكتور «كلوت بك» من نوابغ البعثات، وكان من كبار موظفي الحكومة في عهد عباس باشا الأول، ووزيرًا للخارجية في عهد سعيد باشا.

عبد الله بك السيد

من تلاميذ البعثة الخامسة، وهو من العجميين بالفيوم، تعلم في مدرسة الألسن وأتقن علومها والتحق بالبعثة الخامسة، وتخصص في فرنسا لدراسة الحقوق، وبعد عودته تقلد المناصب في الحكومة وآخرها أنه عين رئيسًا للمحكمة التجارية بالإسكندرية، ثم مستشارًا بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة (١٨٧٥م)، وتوفي سنة (١٨٧٦م)[١].

الطبيعيات والزراعة:

أحمد يوسف أفندي

من تلاميذ البعثة الأولى، تخصص في دراسة العلوم الكيماوية، وعين بعد عودته ششنجيًّا بدار الضرب سنة (١٨٣٢م)، وقد صحب محمد علي باشا في رحلته بالسودان للكشف عن مناجم الذهب، وذكره في هذا الصدد رفاعة بك رافع ويسميه أحمد أفندي يوسف الجشنجي[٢]، ورحل أيضًا إلى بلاد المكسيك بأمريكا لزيارة مناجم الذهب بها، ثم عين مديرًا لدار الضرب، وكانت من المناصب الكبيرة في ذلك العهد.

حسنين أفندي علي البقلي

من تلاميذ البعثة الثانية، وهو أخو محمد علي باشا البقلي، تعلم بمدرسة قصر العيني، ثم التحق بالبعثة الثانية، وبعد عودته عين جشنجيًّا بدار الضرب بالقلعة ومدرس الكيمياء والطبيعة بقصر العيني، وتوفي سنة (١٨٥٣م)، قال عنه علي باشا مبارك[٣]: إنه «كان من أحسن الناس خلقًا وخُلقًا، وله وقوف تام على صنعته».

---

(١) كما جاء في الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة.

(٢) «مناهج الألباب المصرية» ص٢٥٦، طبعة ثانية.

(٣) «الخطط التوفيقية» ج١١، ص٨٧٩.

أحمد بك ندا

من تلاميذ البعثة الخامسة، تخصص في العلوم الكيماوية وأتقن صناعة الصابون وشمع العسل، وعين بعد عودته أستاذًا في مدارس الطب والمهندسخانة وأركان الحرب، وله مؤلفات جليلة؛ منها «الأقوال المرضية في علم الطبقات الأرضية» طبع ببولاق سنة (١٧٨١م)، و«حسن البراعة في علم الزراعة» ترجمه من الفرنسية عن «فيجري بك» طبع ببولاق سنة (١٨٦٦م)، و«حسن الصناعة في علم الزراعة» وهو من تأليفه، طبع ببولاق سنة (١٨٧٤م)، و«الآيات البينات في علم النباتات» طبع ببولاق سنة (١٨٦٦م)، و«الحجج البينات في علم الحيوانات» ترجمه من الفرنسية، طبع ببولاق سنة (١٨٦٧)، وله مباحث جليلة في علم النبات نشرت بمجلة «روضة المدارس».

عبد الهادي إسماعيل

من تلاميذ البعثة الخامسة، أتم دراسته بمدرسة الطب البيطري بمصر ثم بفرنسا، وعين بعد عودته مدرسًا بمدرسة الطب البيطري، وآخر المناصب التي تولاها أن عُيِّن ناظرًا لمدرسة الطب البيطري في عهد الخديوي إسماعيل.

يوسف أفندي

من تلاميذ البعثة الأولى، تخصص لعلوم الزراعة وعين بعد عودته مديرًا للحدائق وناظرًا لمدرسة الزراعة بـ(نبروه).

الفنون الجميلة:

حسن أفندي الورداني

من تلاميذ البعثة الأولى، أتم في فرنسا دراسة الرسم والزخرفة والفنون الجميلة، وعين بعد عودته مدرسًا لفن الرسم والنقش بمدرسة المهندسخانة ببولاق بدل

الأستاذ الفرنسي الذي كان بها، ونبغ في فنه وتخرج على يده كثير من التلاميذ، وقد أشاد الدكتور «كلوت بك» بذكره في كتابه وعده من نوابغ البعثات المصرية.

محمد أفندي مراد

من تلاميذ البعثة الثالثة، عين بعد عودته أستاذًا في الرسم والنقش والزخرفة، وكان نابغًا في فنه، وقد امتدحه الدكتور «كلوت بك» في كتابه وعده من نوابغ البعثات.

محمد أفندي إسماعيل

من تلاميذ البعثة الثالثة أيضًا، قضى في أوربا (٢١) سنة، وعين بعد عودته أستاذًا بمدرسة المدفعية (الطوبجية) في طره، وكان ماهرًا في الرسم والنقش والزخرفة، وقد أثنى عليه الدكتور «كلوت بك» في كتابه.

حسين باشا كوجك

هو حسين باشا فهمي المعمار، كان من تلاميذ البعثة الخامسة، ونبغ في فنون الهندسة والرسم والزخرفة، وتولى وظيفة وكيل ديوان الأوقاف، وهو واضع رسم ومقاسات مسجد الرفاعي بالقاهرة بناء على تكليفه من قبل والدة الخديوي إسماعيل باشا[1]، وقد تم بناء المسجد بعد وفاته.

محمد صادق باشا

أتم في فرنسا دراسة الرسم والزخارف، وعين بعد عودته مدرسًا للرسم بالمدارس، ثم بالمدرسة الحربية بالقلعة في عهد سعيد باشا.

---

(١) «الخطط التوفيقية» ج٤، ص١١٤.

الطباعة والصحافة والنشر

إنَّ الكلام عن الطباعة يتصل بالنهضة العلمية، فهي من أهم أسباب هذه النضهة؛ إذ هي الوسيلة العملية لنشر العلوم والمعارف، ولم يفت محمد علي باشا توجيه عنايته إليها، فقد تقدم القول بأنه أرسل إلى روما وميلانو «نقولا مسابكي أفندي» سنة (١٨١٦م) للتخصص في فن الطباعة[١]، وقد اعتزم من ذلك الحين إنشاء مطبعة بولاق تلك المؤسسة الجليلة التي ما زالت قائمة إلى اليوم تشهد بما أداه محمد علي للنهضة العلمية من جليل الخدمات.

أسست المطبعة في (نوفمبر سنة ١٨٢٠م)، وجعل «نقولا مسابكي أفندي» مديرًا لها، وأمدها محمد علي باشا بكل ما يلزمها من الحروف والمكابس والآلات حتى استوفت حظًّا كبيرًا من الإتقان، وأعدها لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها ولطبع الكتب العلمية في الطب والرياضيات والآداب والتاريخ والعلوم الفقهية وغيرها.

ومما يدل على شديد عنايته بها أنه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الأزهر، والتصحيح فن دقيق ينبني عليه إخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الأغلاط المطبعية التي تشوهها، ولعلك تلاحظ في الكتب التي كانت تطبع في ذلك العصر خلوها من الأغلاط، وهذا راجع إلى حسن اختيار المصححين في مطبعة بولاق.

ففي هذه المطبعة ظهرت باكورة الكتب المترجمة والمؤلفة في بدء النهضة العلمية الحديثة، فلا غرو أن كانت من دعائم هذه النهضة، وقد عنى خريجو المدارس والبعثات بنقل العلوم التي نقلوها إلى اللغة العربية ثم بالتأليف فيه، ومن هنا نشأت نهضة الترجمة والتأليف التي ازدان بها عصر محمد علي، وأخذت العلوم والمعارف تنتشر تدريجًا بين طبقات الشعب، وكان لحسن تنشيط الحكومة لهذه النهضة أثر فعال

(١) راجع ما كتبناه عن الطباعة في عهد الحملة الفرنسية بالجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية».

في إظهارها، فإن محمد علي كان يستحث العلماء والمؤلفين على الترجمة والتأليف ويكافئهم مكافآت سخية، ويستثير في نفوسهم روح الهمة والعمل، ويأمر بطبع مؤلفاتهم على نفقة الحكومة وتوزيعها في المدارس والدواوين.

ومما يُروى عنه في هذا الصدد أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة، وسلم كلًّا منهم كتابًا بالفرنسية في المادة التي درسها بأوربا وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية، وأمر بإبقائهم في القلعة وإلا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم، فترجموها فعلًا وأمر بطبعها في مطبعة بولاق وتوزيعها على المدارس التي وضعت لها تلك الكتب، ونظرًا لأن المترجمين في بدء النهضة كانوا في حاجة إلى من يراجع كتبهم قبل طبعها لضبط عباراتها، فقد اختار محمد علي طائفة من «المحررين» من علماء الأزهر مهمتهم مراجعة عبارات الكتب قبل طبعها وضبط ألفاظها ومصطلحاتها، وقد قام بهذا العمل وقتًا ما أساتذة مدرسة الألسن وتلاميذها، ومن المحررين الذين مهروا في عملهم الشيخ محمد عمر التونسي صاحب «الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية»، وهو معجم للمصطلحات الطبية، والشيخ محمد عمر الهراوي، والشيخ مصطفى حسن كساب وغيرهم.

وقد ذكرنا في تراجم أعضاء البعثات نموذجًا من الكتب المعربة والمؤلفة التي طبع معظمها في مطبعة بولاق.

وعدا هذه المطبعة كان يوجد مطابع أخرى صغيرة؛ منها مطبعة بمدرسة المدفعية بطره، وأخرى في أبي زعبل، وثالثة في مدرسة الفرسان بالجيزة، وكانت هذه المطابع تخرج لوائح ومطبوعات هذه المدارس وبعض مؤلفات تلاميذها.

وفي مطبعة بولاق كانت تطبع «الوقائع المصرية» وهي الجريدة الرسمية للحكومة، أسست سنة (١٨٢٨م) وصدر أول عدد منها في ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٢هـ (٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨م) وكانت تصدر بالعربية والتركية، ثم اقتصرت على اللغة العربية، وتنشر أخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها وبعض الأنباء

الخارجية، وهي أول جريدة عربية أسست في مصر، ولم يسبقها إلى الظهور جريدة أخرى في تاريخ مصر الحديث؛ إذ إن الجرائد التي ظهرت على عهد الحملة الفرنسية كانت تنشر باللغة الفرنسية، أما «سلسلة التاريخ» التي كان يحررها السيد إسماعيل الخشاب فلم تكن جريدة؛ وإن كان بعض المؤلفين يسميها خطأ جريدة «الحوادث اليومية»، بل كانت سجلًّا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة. وكذلك صحيفة «التنبيه» التي اعتزم الجنزال «منو» إصدارها بالعربية لم تصدر فعلًا كما بيناه في الجزء الثاني من «تاريخ الحركة القومية»[1].

وقد ظلت «الوقائع المصرية» الجريدة الرسمية للحكومة المصرية حتى اليوم، فهي أقدم الصحف العربية وأطولها عمرًا.

(١) راجع الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص١٤٥، والجزء الثاني ص٢٢٣ و٢٢٨ (ومن الطبعة الأولى).